
الطبعة الثانية
مع الداعية الإسلامي
islamicFiles.NeT
أخطاء شائعة
في تفسير القرآن الكريم
أ.د . مبروك عطية
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحمد لله الذي أنزل كتابه بلسان عربي مبين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الغر الميامين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

وبعد

فقد فكرت في إعداد تفسير كامل لكتاب الله - عز وجل - وأنا أعلم قدر التبعة ، وعظم المشقة ، لكني قلت : إن هذا عمل رفيع القدر والدرجات ، لكنه سيكون سفرًا عظيمًا ينضم إلى ما سبق من أسفار ، بذل فيها السادة العلماء المفسرون أعمارهم خدمة لكتاب الله ، وسوف يكون تكرارًا لها وإن حرصت على التجديد والإضافة ، وربط المعاني السامية بالواقع المرير ؛ فلا شك أن هناك مفارقة بين معاني القرآن السامية وواقع الحياة بشكل أو بآخر ، ورأيت أنه لا أحد يعتكف على كتاب تفسير طويل حتى يُتِمَّهُ قراءة فضلاً عن تدبر ، إلا القليل حتى طلاب الدراسات العليا وبعض الأساتذة ، فهم يرجعون إلى تلك الكتب عند استشارتها في آية يتعرضون لها تفسيرًا أو حكمًا أو إعرابًا ، فهم يبحثون عنها وتنتهي علاقتهم بعد ذلك بتلك الكتب القيمة .

فرأيت أنْ أقدم هذا العمل ، الذي أود أن يطلع عليه كاملاً كلُّ من نظر فيه ؛ لأنه يقوم على محورين ، أو فصلين .

الأول : فهم خاطئ لبعض آيات القرآن .

الثاني : ما يجب أن يكون نصب أعين أولي الألباب من آيات القرآن الكريم التي غابت عنا معشر المسلمين ، وما كان ينبغي لنا أن نبعد عنها ، والكتاب كله ما ينبغي أن يغيب ولا أن يهجر ، فهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هدى للمتقين ، ورحمة وبشرى للمؤمنين ، المتعبد بتلاوته ، الشائع لأصحابه ، الهادي للتي هي أقوم ، وهناك آيات معينة سوف يطلع عليها القارئ الكريم ، وعليها تبنى شخصيته ، وينصلح حاله ويتغير وفق نورها وهداها سلوكه .

وقد بدا لي أن الغاية من هذا الكتاب تتحقق في هذين الفصلين ، وإني لأرجو أنْ يكون هذا الكتاب بداية لخدمة الكتاب الكريم من حيث معايشة العلماء والدعاة المهتمين بالخطاب الديني ؛ حيث تظهر بين الحين والحين أخطاء تتجدد ، لا من باب العبارة الشائعة (القرآن حمال أوجه) ، وإنما من باب النزعات الفكرية والبدع التي تنشأ وتورث ، وقد ظهرت أيام رسول الله - ﷺ - بعض التصورات التفسيرية ، هي بلا شك أخطاء ، لكنها سرعان ما توارت حين سأل الناس عنها رسول الله - ﷺ - وما في هذا الكتاب لم يكن من تلك التصورات ، وإنما كان بعد وسوف يكون غيرها ، وقد تكون هنالك أخطاء في زماننا لم أقف عليها ، فمن وقف عليها من العلماء وجب عليه أن ينبه الناس إليها ، من باب خدمة هذا الكتاب الفريـد ، والرغبة الصادقة في نصح المسلمين ، فقد جاء في الصحيح عن رسول الله - ﷺ - أن الدين النصيحة ، ولن ترتقي نصيحة في الحياة إلى مستوى النصيحة في ضوء كتاب الله ، على المعنى الصحيح .

وقد رأيت السادة العلماء قد بذلوا جهدًا مضنيًا في خدمة القرآن الكريم ، فذكروا الأوجه المحتملة وتعصب بعضهم لمذهبه اللغوي ، فحمل بعض الآيات على مذهبه ، فكان وجهه ضعيفًا ، وقد كتبت في ذلك كتاب (التعصب المذهبي

وأثره في النحو القرآني) منذ أكثر من خمسة عشر عامًا ، وقد نبهوا إلى ما كان من الصحابة من فهم لبعض الآيات ، وجههم - ﷺ - إلى المعنى الصحيح ، ومن ذلك ما يأتي :

1 - هرع الناس في زمن رسول الله - ﷺ - إليه حين فهموا من الكتاب الكريم شيئًا ظنوا فيه هلاكهم ، ومن ذلك حين نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ ﴾[1] قالوا : ما من بيت إلا فيه يتيم ، فأنزل الله قوله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾[2] .

2 - كذلك حين نزل قوله - تعالى - : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[3] .

قالوا للنبي - ﷺ - أينا لم يظلم نفسه يا رسول الله ؟

فقال لهم : «ليس هذا هو المراد ، إنما المراد الشرك ، ووجههم - ﷺ - إلى آية لقمان : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[4] رواه البخاري وغيره» .

3 - وفي زمان الصديق - رضي الله عنه - فهم بعض الناس قول الله - تعالى - : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾[5] .

قال ابن كثير : «قام أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنكم تقرءون هذه الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإني سمعت

(1) الأنعام : 152 .
(2) البقرة : 220 .
(3) الأنعام : 82 .
(4) لقمان : 13 .
(5) المائدة : 105 .

رسول الله - ﷺ - يقول : **«إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله - عز وجل - أن يعمهم بعقابه»**[1] .

وقد قال ابن كثير في الموضع نفسه : وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إذا كان فعل ذلك ممكنًا .

4 - وروى أصحاب السير كابن عبد البر في الاستيعاب ، وابن الأثير في «أسد الغابة» أن عمر - رضي الله عنه - حين أراد أن يقيم حد الشرب على رجل من المسلمين قرأ عليه الرجل قول الله - فقال - : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2] .

قال له عمر : كذبت ، لو آمنت واتقيت لما ارتكبت ما حرم الله .

فهم الرجل أن ظاهر الآية يقول ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح (ذنب) فيما طمعوا ، كأن ظاهرها يقول للذين آمنوا وعملوا الصالحات أن ليس عليهم من إثم في أكل أي شيء ، وشرب أي شيء ، ما داموا مؤمنين يعملون الصالحات .

وليس هذا صحيحًا ، إنما الصحيح أي الذين آمنوا وعملوا الصالحات وشربوها قبل أن تحرم ، كما ذكر المفسرون .

5 - ولعله من باب السخرية أن رجلاً قيل هو عتيبة بن حصن الفزاري ، وكان من المؤلفة قلوبهم رأوه يشرب الخمر ، فقالوا له : ألم تعلم أن الله حرّمها ؟

فقال : إن الله قال : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[3] .

---

(1) البداية والنهاية : 2/ 109 .

(2) المائدة : 93 .

(3) المائدة : 91 .

قال بعض الناس : نعم ، وقلنا نحن : لا .

وقيل إنه أنشد :

مَا قَالَ رَبُّكَ وَيْلٌ لِلأُلَى سَكِرُوا   بَـلْ قَـالَ رَبُّـكَ وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَا

وأقول لعله من باب السخرية لأن الرجل كان في زمان الفصاحة ، ولا يخفى على مثله أن قوله - تعالى - : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ استفهام بمعنى الأمر ، أي : انتهوا وقد قال ابن كثير[1] : «وهذا تهديد ووعيد» فهو أبلغ من الأمر «انتهوا» . ولذلك اختلف الناسُ في صحة إسلام هذا الرجل .

والذين يقولون إن القرآن حمال أوجه إما أنهم يقولون ذلك على علم ، وغايتهم بيان اتساعه ؛ لأنه تنزل بلسان عربي مبين ، واللسان العربي حمّال أوجه ، وكم من أساليب العرب يحمل على الحقيقة كما يحمل على المجاز ، بل إن منها ما يحمل على المعنى ومقابله ، كالبيت المشهور :

دَعِ الـمَكَـارِمَ لَا تَـرْحَـلْ لِبُغْيَـتِهَـا   وَاقْعُـدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

حيث إنه يحمل على المدح ، كما يحمل على الذم .

وإما أنهم يقولونها لفتح باب المخالفة ، كأن قائلها يصر على ما يراه وهو خطأ ، وليس له من علة إلا قوله : «القرآن حمال أوجه» .

وما هذه بعلة صحيحة ؛ إذْ عليه أن يقول : أرى ذلك لعلة كذا ، وهي على وجه عربي أصيل تحمل عليه الآية دون إنكار ، كآيات التشريع التي اختلف في تفسيرها الفقهاء ؛ فكان لكلٍّ وجه معتمد ، وشتان ما بين فقيه عالم ، ومتفيقه متعالم .

(1) البداية والنهاية : 2/ 109 .

وقد سميته (أخطاء شائعة في تفسير القرآن الكريم) وقد ينطبق هذا الاسم على الفصل الأول انطباقًا صريحًا ، وهو كذلك - إن شاء الله - ينطبق على الفصل الثاني انطباقًا ضمنيًا ؛ لأن الآية إذا اتضح معناها كان من الخطأ العمل على غير هذا المعنى ، ألست ترى أن القرآن واضح مبين في نحو قول الله - تعالى - : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1] والفرح المذكور في هذه الآية بنصر الله للروم . لأنهم أهل كتاب ، فهم أقرب إلى المسلمين من عدوهم الفرس ، فإذا رأيت المسلمين لا يفرحون بنصر الله لغيرهم الذي هو قريب منهم فضلاً عن عدم فرحهم لما أصابهم من خير ، ألا ترى ذلك خطأ ، وهكذا ، وإني أسأل الله - تعالى - أن يجعله عملاً مباركًا خالصًا لوجهه الكريم ، وأن يتقبله وينفع به الناس ، وأن يجعله في ميزان كاتبه ومن أعانه عليه إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أ.د. مبروك عطية
الأستاذ في جامعة الأزهر ، والداعية الإسلامي

(1) الروم : 4 .

الفصل الأول

أخطاء شائعة في تفسير بعض آيات القرآن الكريم

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[1] .

قال ابن كثير في تفسيره 69/1 : (إني جاعل في الأرض خليفة) أي قومًا يخلف بعضهم بعضًا قرنا بعد قرن ، وجيلًا بعد جيل ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾[2] ، وقال : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾[3] ، وقال: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾[4] ، وقال : ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾[5] .

وذكر – رحمه الله – أنه ليس المراد به آدم – عليه السلام – وإلا ما حسن أن يقول الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها كأنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك ، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية .

---

(1) البقرة : 30 .

(2) الأنعام : 165 .

(3) النمل : 62 .

(4) الزخرف : 60 .

(5) مريم : 59 .

هذا واضح جدًّا في بيان معنى «خليفة» ، فليس صحيحًا ما يقال بأن الإنسان خليفة الله في الأرض ، على معنى قولنا : أبو بكر - رضي الله عنه - خليفة رسول الله ﷺ .

وعلى معنى قول الله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ ﴾[1] .

فقد كان كليم الله موسى - عليه السلام - ماضيا إلى ميقات ربه .

فالخليفة لها معنيان : **الأول** : الوارد في قوله - تعالى - : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ أي قوما يخلف بعضهم بعضًا .

والثاني : الوارد في قوله - سبحانه - : ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ .

وإسقاط هذا المعنى على قوله - تعالى - : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ لا يصح ؛ لأنهم ليس بعد الله بعد ، والله - تعالى - لا يغيب كما غاب موسى عن قومه فخلفه هارون ، ولا يموت ، كما مات النبيون وخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ولست مع هذا العنوان (الموقعون عن الله) الذي أساسه الكتاب الموسوم بإعلام الموقعين عن رب العالمين فليس الأمر كالأمر في المصالح الحكومية يوقع الوكيل عن العميد ، والنائب عن الرئيس ، لما فيه من جرأة ، وتوهم أن الله - عز وجل - قد فوّض من يوقع عنه ، وهو إلى روح الأدب أقرب منه إلى موضوعية العلم ، فإن المجتهد إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر ، والدين مبنيٌّ على الاتساع ، وقد اجتهد الصحابة في

(1) الأعراف : 142 .

زمن رسول الله - ﷺ - ومعروفة قصة «لا يصلين أحدكم العصر إلاّ في بني قريظة» أخذ بعض الصحابة بظاهر اللفظ فلم يصل العصر إلّا هنالك وأخذ بعضهم بفحوى العبارة ، وأنها كناية عن الإسراع فصلوا العصر لأول الوقت ، وعلم بذلك رسول الله - ﷺ - فلم ينكر على أحد ما فعل ، ومعنى ذلك أن كلًّا كان على صواب .

وقد فهم عمرو بن العاص أن معنى قوله - تعالى - : ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾[1] يشمل عدم التعرض لما فيه أذى كثير ، فتيمم ولم يغتسل من جنابة ؛ لأن الجو كان شديد البرودة ، وصلى بالناس ، وعلم رسول الله - ﷺ - بذلك ؛ فابتسم مبالغة في رضاه عما صنع عمرو - رضي الله عنه - .

والله - تعالى - يقول : ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾[2] والاستنباط أو القياس قد يصيب فيه المجتهد وقد يخطئ ، والنبي - ﷺ - يقول : «**فسددوا وقاربوا**» وهذا من يسر الدين والتوقيع معناه الحسم والقول الفصل ، وكذلك معنى خليفة .

واليقين عند المؤمنين أن الله - تعالى - حي لا يموت ، وليس كمثله شيء ، وأنه لا يغيب ، ولا يشغله شيء عن شيء ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وحمل الألفاظ وفق هذا اليقين مهم جدًّا ؛ فسبحان الحي الذي لا يموت وتبارك الله الذي لا يغيب .

---

(1) النساء : 29 .

(2) النساء : 83 .

العفو والصفح

﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ ﴾ .

وفي سورة البقرة يقول الله - تعالى - : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] .

قضية العفو والصفح من القضايا المهمة ؛ حيث إن من الناس من يعفو ، ولكنه لا يصفح ، لا يطوي صفحة الضر والأذى ، ويقطعها من حياته ، إنه يعفو كما يقول ، ويقبّل رأس خصمه ، ويقرأ الفاتحة على دوام المعروف ، وبعد وقت طال أو قصر ، يحدث شيء بينه وبين مَنْ عفا عنه تراه يذكر ما كان ، فما زالت صفحته داخله لم تطو بعد ، وكما يقولون : تتراكم صفحات السوء ، فتطغى على الموقف الجديد ، فتنهار العلاقة بين الناس ، والدليل على ذلك قصة تلك الزوجة التي قالت يومًا : لن أعيش معه وإن قطعتموني أشلاء ، فلما سئلت عن السبب قالت : تراكمات ، مع أنها عفت من قبل . نعم . عفت ولكنها لم تصفح .

وقد قال الله - عز وجل - في آية النور : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[2] .

وفي اجتماع العفو والصفح بيان لتعرض المسلم إلى رحمة الله - عز وجل - تعرضًا صحيحًا على منهجه - عز وجل .

وبعض الناس يقولون : نحاول أن ننسى الإساءة فلا نستطيع ، فهل من علاج ؟

---

(1) البقرة : 109 .

(2) النور : 22 .

والجواب : نعم ، وذلك بأمرين مهمين :

الأول : التفكر في ثواب مَنْ غفر وصفح ، أو عفا ، فإن أجره على الله ، وذلك من عزم أمور هذا الدين .

والثاني : التفكر فيما في الصفح من حسنات فإن الحسنات يذهبن السيئات ، فإن لم تكن فيه حسنات فلتكن منك أيها الراغب في نسيان الإساءة ، والدليل على ذلك قول الله – تعالى – : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[1] فانظر كيف ربط بين نعمه – تعالى – على المؤمنين وبين أمرهم بأن يغفروا للذين لا يرجون أيام الله : فإن ذكر النعم يعين على نسيان النقم .

....

﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾[2] .

كاد فهم الناس لهذه الآية يتوقف عند مثالهم الدال على هذا المفهوم ، وهو أن يلقي الإنسان بنفسه أمام قطار ، أو يسقط نفسه من فوق برج عال ، أو أن يرمي بنفسه من فوق جسر ؛ ليجد نفسه غريقًا في النهر ، ونحو ذلك .

---

(1) الجاثية : 12 - 14 .

(2) البقرة : 195 .

وهذا المفهوم لم يرد أصلًا عند أحد من المفسرين ، فمعنى الآية - كما ذكروا - أن الذي يتخلف عن الجهاد في سبيل الله . وينعم مع أهله ، فهو بهذا يلقي بنفسه في التهلكة .

ومما ذكروه أنه بعد أن استقرت الأمور ، دُعي المسلمون إلى الإنفاق في سبيل الله - عز وجل - فمن لم ينفق فقد ألقى بنفسه إلى التهلكة ، وهي الهلاك المبين .

ومما ذكروه أن معنى الآية في الذي يذنب الذنب ثم لا يتوب ، وعلى سبيل الإجمال : كل مَنْ كان قادرًا على عمل شيء ولم يعمله لرفعة دينه ، والنهوض بمستوى معيشته فقد ألقى بيده إلى التهلكة .

ويشمل ذلك الطالب الذي لا يعتكف على كتبه ، ولم يحصل علمه بإتقان ، فإنه من غير شك يلقي بيده إلى التهلكة ، حيث يتخلف ويتقدم زملاؤه ، ويلقي بالحسرة في قلوب والديه ومحبيه ، ويضيع وقته في لهو وعبث ، والوقت غالٍ نفيس .

والأمة الإسلامية حين يشرق فيها هذا المعنى الصحيح لهذه الآية وغيرها ستنهض من غير شك لتتبوأ مكانتها السامية بين الأمم ، فكم من جهد لم تبذل ، وكم من وقت لم تستثمر ، وكم من طاقة ضيعت ، فتخلفت وتقدم غيرها ، وهذا لا يصح بحال ، ومن أسباب هذا التخلف فيما أعتقد يقينًا أنها فهمت السلب لا الإيجاب ، فاكتفت بأنها لا تغامر ، ويا ليتها غامرت على وجه المغامرة لا المقامرة اكتفت بالسلب فلم تقدم على الأمجاد ظانة بأن ذلك من باب إلقاء الأيدي إلى التهلكة ، والله نهى عن ذلك كهذا الذي أدى فهمه غير الصحيح إلى نومه في سريره ؛ فهو يظن أنه ما دام نائمًا فهو في سلام وأمان ، أما إذا خرج فلربما ألقى بيده إلى التهلكة .

أرأيت إلى هذا المنافق الذي اعتذر عن الخروج من رسول الله - ﷺ - إلى تبوك ؛ لأنه لا يطيق النظر إلى بنات الروم ، ويخشى على نفسه الفتنة ، وفيه نزل قول

الله - تعالى - : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] .

وعلى هذا النحو كثير من الناس اليوم ، ويتعللون مع الأسف بقوله - عز وجل - : ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ يقولون دائمًا ما نحفظه عنهم «وعلى إيه ؟» أي وعلى أي شيء يغامر الإنسان بعمل شيء قد يكون فيه هلاكه .

بل إن المعنى قد امتد إلى أبعد من النوم والركود .. إلى الاستسلام إلى الذل ، والتنازل عن الحقوق ؛ لأن الخصم من ذوي الجاه والسلطان ، يقول بعضهم لبعض لا طاقة لنا بفلان ، إنه مؤذ ، إنه يستطيع أن يذهب بنا إلى ما وراء الشمس ، والله - تعالى - يقول : ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ وليس هذا صحيحًا ، فقد سأل رجلٌ رسول الله - ﷺ - فقال : أرأيت لو أن أحدًا أراد أن يأخذ مالي ! فقال - ﷺ - لا تعطه مالك .

قال : أرأيت لو قاتلني ؟!

قال : قاتله .

قال : أرأيت لو قتلته ؟!

قال : هو في النار .

قال : أرأيت لو قتلني ؟

قال : أنت في الجنة .

وفي الصحيح يقول - ﷺ - : **«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»** .

---

(1) التوبة : 49 .

إن الذي يلقي بنفسه وبيده إلى التهلكة هو الذي لا يدافع عن ماله وعرضه ، فإن قتل دونهما فهو شهيد وإن قتل الباغي فالباغي في النار ، فأية تهلكة أن يكون مصيره الجنة ، أو أن يكون مصير الباغي النار ، إنها مفازة ، وفوز عظيم ، فالجنة ليست تهلكة ، وإنما هي عين النجاة من كل هلاك ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[1] .

وقضاؤه كذلك على الباغي سلامة له منه وسلامة لغيره كذلك : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[2] .

وقد شرع الإسلام القضاء والتقاضي لفض النزاع والخصومات بين الناس ، وقد وقف الأقوياء مع الضعفاء أمام القضاء ، وسرت على الجميع قاعدة الدين : «البينة على من ادعى واليمين على مَنْ أنكر» وقد سأل القاضي ، عليَّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - ألك بينة ؟ فقال : لا ، فلم يحكم له ، وكانت الخصومة بينه وبين كتابيٍّ في درع ، الأمر الذي جعله يقول : هذا قضاء الأنبياء وأسلم واعترف أنه أخذ الدرع ؛ فلما أراد أن يسلمه إلى أمير المؤمنين أبى ، ووهبه إياه مكافأة له على إسلامه .

....

حسنة الدنيا والآخرة

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[3] .

---

(1) آل عمران : 185 .

(2) الأنعام : 45 .

(3) البقرة : 201 .

شاع عند كثير من الناس ، وقد قرأت ذلك في كتب متفرقة أن حسنة الدنيا الزوجة الصالحة التي إذا نظر إليها زوجها سرته ، وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته في عرضها وفي ماله .

وهذا من باب تضييق الواسع ؛ فإن ما ذكروه ورد به حديث شريف ، لكنه ليس في تفسير الآية ووقف معناها عليه ، فإن حسنة الدنيا تتمثل في كل أمر من شأنه أن يجعل الدنيا حسنة من مال يغني ، ودين واسع ، وزوجة صالحة وأبناء بررة ، وإخوة رَحَمَة ، وجار حسن وزميل موافق ، وصاحب ناصح ، ومؤتمن أمين ، وصحة وعافية ، وتوفيق ، وسداد ... إلى آخر ما يعرف الناس من أسباب السعادة في الدنيا ، وليس فقط الزوجة الصالحة ، ومن دعاء النبي - ﷺ - : «**اللهم أصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا**» والمعاش شامل الزوجة وغير الزوجة ألست ترى أنبياء كيحيى بن زكريا ، وعيسى بن مريم ، وعلماء وأولياء كالزمخشري لم يتزوجوا ، وما غض ذلك من قيمتهم ، وما نال من دعائهم إذ دعوا بهذا الدعاء وقد استجاب الله لهم ، فهداهم سبل الرشاد .

هذا ، وبعض المسلمين إذا ذكرته بحسنة الدنيا على الوجه الذي ذكرته قال لك : لا ، لا ، لا نسأل الله الآخرة فقط ، أو قال كما يقول كثير من الناس ، وسوف يأتي بيانه في موضعه إن يشاء الله - تعالى - من سورة يوسف «ربنا يخرجنا منها على خير» .

وهذا لا يجوز ، فإن حسنة الدنيا مطلوبة بدليل هذه الآية وغيرها ، والدنيا ليست على أيدي هؤلاء ، من البغض والسوء ، والسواد واللعنة ، وأنها دار الباطل ، كما يقولون في الميت «هو في دار الحق ونحن في دار الباطل» فمن قال إن الآخرة دار

الحق والدنيا دار الباطل ؟ إن الدنيا دار الحق ، ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾[1] .
و﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[2] .

....

﴿ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ .

أعتقد أن الضعف اللغوي سبب رئيسي من أهم أسباب الفهم القاصر في مثل هذه الآية وغيرها من آي الذكر الحكيم ، فالله - تعالى - يقول : ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[3] .

حيث زعم كثير من الناس أن قوله تعالى - لمن اتقى - متصل بمن تأخر ، أي في رمي جمرات منى ثلاثة أيام ، يفهمون أن الله - تعالى - يقول : فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر إلى ثلاثة أيام فذلك هو التقي ، وليس هذا صحيحًا ؛ فقوله تعالى ﴿ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هذا التخيير لمن اتقى ، ولله در الزمخشري حيث قال وهو الحاج على الحقيقة ، أي أن الحاج هو التقي ، ونعم القول قوله : ﴿ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ : أي : ذلك التخيير ، ونفى الإثم عن المتعجل والمتأخر لأجل الحاج المتقي ؛ لئلا يتخالج في قلبه شيء منهما ، فيحسب أن أحدهما يرهق صاحبه آثام في الإقدام عليه ؛ لأن ذا التقوى حذر متحذر من كل ما يريبه ، ولأنه هو الحاج على الحقيقة عند الله[4] .

---

(1) الإسراء : 105 .

(2) الإسراء : 81 .

(3) البقرة : 203 .

(4) الكشاف للزمخشري : 352/1 .

ومع الأسف لم أجد أحدًا من الدعاة الهواة الذين يصحبون الحجيج في رحلاتهم كل عام ، يتعرض لشرح ذلك بل إن منهم – مع الأسف – من يفهم هذا المعنى الذي يفهمه عامة الناس ، إنما شغل هؤلاء الشاغل في قصص الرقائق ، وفي حديث شريف «خذوا عني مناسككم» فهم يرون أن رمي الجمرات فقط عند الزوال ، وليس كما يرى الأئمة المعاصرون من شتى بقاع الأرض على مدى الساعة ، نظرًا إلى الزحام الرهيب ، وغير ذلك من المآسي .

ومعنى الآية واضح في أن من تعجل في يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر إلى ثالث ، فلا إثم عليه ، وذلك بسبب أن الجاهلين كانوا فريقين في ذلك ، **الأول** : يقول : من تعجل فهو آثم ، **والثاني** : يقول : من تأخر فهو آثم ، فنزلت الآية الكريمة على التخيير أي من تعجل في يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه وهذا بيان الله – تعالى – لمن اتقى ، أي للحاج الذي هو تقي كما قال الزمخشري – عليه رحمة الله – تعالى .

فهنيئًا لمن وفقه الله – تعالى – إلى زيارة بيته ، وإتمام حجه وعمرته ، وهنيئًا لمن تقبل الله منه .

وقد قال الله – تعالى – : ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾[1] .

قال العلماء :

شرط قبول العمل في الإسلام أمران :

الأول : أن يكون خالصًا لله .

والثاني : أن يكون صحيحًا .

(1) البقرة : 112 .

ولتوضيح ذلك أقول : لا تقبل صلاة من عزم على الإخلاص ، وهو يصلي الظهر ثلاث ركعات أو يتعمد أن يصلي إلى غير القبلة ، أو العكس كالذي يصلي صلاة صحيحة رياءً .. أعتقد أنه ليس من الصحة أن يعتقد مَنْ بقي ثلاثة أيام في منى أنه هو التقي .

....

﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ .

وفي سورة البقرة يقول الله – تعالى – : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

سمعت طبيبة متخصصة في العلاقة الجنسية بين الأزواج تقول : إن معنى ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ معناه مقدمات الوطء من القبلة والمداعبة ، وغير ذلك ، وكنت أود أن تطلع هـذه الطبيبة ولو على تفسير الجلالين ، حيث يقول السيوطي – رحمه الله – ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ : العمل الصالح ، ولأن الآية في سياق العلاقة الخاصة المعروفة بالحميمية بلغة الناس اليوم وبالوطء والمباشرة بلغة الفقهاء قال السيوطي : كالتسمية عند الجماع .

يقول الزمخشري – رحمه الله – : ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ : ما يجب تقديمه من الأعمال الصالحة وقيل : هو طلب الولد ، وقيل : التسمية عند الوطء[2] ولا يصح أن نختلف عن معنى الأعمال الصالحة ، ونتوقف عند مقدمات النكاح (فإنه يرد

(1) البقرة : 223 .

(2) الكشاف 362/1 .

بمعنى الوطء والمباشرة) وفي التنزيل : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾[1] .

وهذه القضية من القضايا المهمة في حياتنا المعاصرة ، أن نتوقف عند شيء ، أشبه ما يكون بالنافلة ونهمل الركن الذي تتأسس عليه حياتنا .

وقفنا طويلًا عند صلاة التراويح ، ولم تتوقف عند الصلاة المكتوبة ، ووقفنا أحيانا عند الصلاة المكتوبة ولم نتوقف عند روح تلك الصلاة المكتوبة ، أي عند قول الله - تعالى - من سورة العنكبوت : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ ﴾[2] .

كذلك الحال وقفنا طويلًا طويلًا عند المعاشرة الزوجية إلى درجة أننا أطلقنا عليها الحق الشرعي ، وكأن جميع ما للزوجة من حق شرعي يتمثل في الجماع ، مع أن لها من الحقوق الشرعية الكثير ، من حسن العشرة ، والملاطفة ، والنفقة ، والرعاية ، والتعليم ، وغير ذلك مما هو منوط بالرجل ، أن يقوم به .

وأنشأنا برامج قامت بها مثل هذه الطبيبة ، برامج في الجنس ، وأقمنا الندوات والمؤتمرات ، واعتبرناها ثقافة ، ونادت إحدى المخرجات بضرورة تصوير تلك العلاقة في أفلام السينما دون الإشارة إليها ، كما طالبت ومعها غيرها بتدريس ذلك لطلاب المراحل التعليمية المختلفة ، بدءًا من المرحلة الابتدائية .

نقيم الدنيا ولا نقعدها - كما يقال - في قضية من القضايا التي هي بلا شك مهمة ، لكنها لا تحتاج إلى هذا الضجيج ، ولا إلى تلك الثورة ، حتى وإن أحدثنا بسببها ثورة فما يكون لنا أن نُخضع لها كتاب الله - عز وجل - الذي أشار إليها كما

---

(1) المزمل : 20 .

(2) العنكبوت : 45 .

قال علماء المسلمين في نحو قوله - تعالى - : ﴿ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾[1] لأن الكتاب الكريم يكني عن مثل هذه الموضوعات بأسمى آيات الأدب ، وهو يعلمنا بلا شك هذا الأدب .

....

﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ .

ومن الضعف اللغوي الذي أدى إلى قصور الفهم لآي الذكر الحكيم ما يظنه كثير من الناس في قول الله - تعالى - : ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2] حيث يظن السواد الأعظم من الناس أن قوله تعالى ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ جواب الطلب ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ والمعنى إن تتقوا الله يعلمكم الله ، وأدى ذلك الفهم غير الصحيح إلى إهمال العلم وطلبه ، والتعب والمشقة في سبيل تحصيله ، فما الداعي إلى البكور وإلى التزاحم على دور العلم ، والمسألة أهون من ذلك بكثير فهي : ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ومعناها عند هؤلاء : أن التقي يعلمه الله العلم اللدني ، بلا معلم ، ولا كتاب ، ولا قرطاس ، ولا امتحان ، ولا نجاح ، ولا رسوب ، ولا وجع للقلوب .

وليس هذا المعنى صحيحًا ، فجميع العلماء على أن ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ جملة مستأنفة ، و﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ جملة مستأنفة كذلك : فلا ربط بينهما ، ولو كانت ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ جوابا للطلب لجاءت بدون الواو ؛ إذ الواو لا تدخل في

(1) المائدة : 6 .

(2) البقرة : 282 .

جواب الطلب ، ألست ترى قوله - تعالى - : ﴿ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[1] ما قال ربنا : «فاتبعوني ويحببكم الله» بالواو .

فالواو لا تزاد في جواب الطلب ، تقول : اجتهد تنجح وهو عند اللغويين على معنى الشرط ، أي : إن تجتهد تنجح وفيه (أي تنجحُ) وجهان : الجزم ، والرفع .

ولم يأت بالواو كما ترى ، أي لم تقل : اجتهد وتنجح . فلا صلة بين قوله تعالى ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ بالأمر بالتقوى إنما هو كلام مستأنف كما ذكره العلماء جميعًا ، أي ويعلمكم الله أحكام دينكم الذي ارتضى لكم ، ومن هذا : ماذا تفعلون إذا تداينتم ، مما سبق بيانه في الآية الكريمة (282) من سورة البقرة ، وهي المعروفة بآية الدين ، وهي أطول آية في كتاب الله - عز وجل - .

ولقد سمعت - مع الأسف الشديد - أحد علمائنا الكبار يقول في قوله - عز من قائل - : ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ما يقوله العوام تماما بتمام ، لكنني آنست شيئًا مرعبًا ، هو أنه كان جالسًا مع قوم لا يفهمون إلّا هذا المعنى ، أي من الذين يرون أن العلم هو علم الله ، يهبه للتقي ، ومثالهم على ذلك العبد الصالح «الخضر» ويرونه كأنه يسكن بينهم في ذات الشارع ، وكأننا في زمانه ، وكأننا ما نقل إلينا قول سيدنا رسول الله - ﷺ - الذي رواه البخاري «**خيركم مَنْ تعلم العلم وعلمه**» وقوله - ﷺ - «**إنما العلم بالتعلم**» وكأنا ما درسنا سيرته العطرة ، وعلمنا أنه قبل من أسارى بدر ، الذين لم يكن معهم مال للفداء أن يعلم أحدهم عشرة من أبناء الأنصار القراءة والكتابة ، وأن أحد كتاب الوحي ، وهو زيد بن ثابت - رضي الله عنه - من هؤلاء الذين تعلموا ، وقد أمره النبي - ﷺ - أن يتعلم لغة يهود ، فتعلمها في خمسة عشر يومًا ، وتعلم - رضي الله عنه - غيرها من خدم رسول الله - ﷺ - .

(1) آل عمران : 31 .

ولا ينكر أحد فضل التقوى ، وأنها سبب في كل خير فقد قال الله - عز وجل - : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[1] ويكفي المتقين شرفًا وكرامة أن هذا الكتاب الكريم هدى لهم ، قال - تعالى - في صدر سورة البقرة : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[2] .

ولكن ليس معنى هذا أن يتعلم التقي العلم بلا معلم وليس معناه أن يحمل كتاب الله - عز وجل - على غير معناه أو على محمل لا يصح ، وليس من شرف العالم أن يجامل قومًا على حساب دينه ، فإنهم مع الأسف يستشهدون به ، وبه يحتجون على مَنْ عارضهم ، وأراد لهم الخير بالفهم الصحيح .

....

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ .

يقول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[3] وهذه الآية وغيرها من الآيات التي ورد فيها ذكر الله - تعالى - مما نحن في حاجة إلى بيانه وتفسيره ؛ حيث إن السواد الأعظم من الناس يفهم ذكر الله على أنه النطق بلفظ الجلالة ، وتكرار أسماء الله الحسنى ، بأن يقول : يا رحيم ، يا رحمن ، يا ودود ، يا لطيف ، يا غفور ، يا غفار ، وهكذا ، وبعضهم يقول : لقد ذكرت الله اليوم ألف مرة ، والعجيب أن الذي يقول ذلك قد يكون من الذين

(1) الطلاق : 2 ، 3 .

(2) البقرة : 2 .

(3) آل عمران : 135 .

يؤخرون الصلاة عن أول وقتها ، وفيه من الكرامة والفضل ما ذكره ابن عبد البر - رحمه الله - في التمهيد وغيره وقد روى البخاري في صحيحه عن سيدنا رسول الله - ﷺ - قوله في جواب مَنْ سأله عن أحب الأعمال إلى الله - تعالى - «**الصلاة على وقتها**» وورد في التفاسير عن قول الله - تعالى - من سورة الماعون ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾[1] أنهم الذين يؤخرون الصلاة عن أول وقتها لغير عذر ، أي ليسوا الذين هم تاركون لها أصلًا ، فهؤلاء فيهم كلام آخر مبسوط في كتب الفقه .

ولست أدري كيف يكون المهمل في صلاته ذاكرًا لله - عز وجل - لا شك في أنه كذلك بالنسبة إلى مفهومه القاصر ، حيث فهم أنّ ذكر الله - تعالى - يعني ترداد أسمائه الحسنى باللسان ، وقنع بذلك ، ورضي به .

وقد يكون هذا الذاكر لله - عز وجل - باللسان قاطعًا لأرحامه ، مسيئًا إلى جيرانه ، بعيدًا أيَّ بعد عن روح دينه ، وتعاليمه كالذي يصلي خصوصًا الفجر حاضرًا في جماعة مسجده ، وهو يفعل المنكرات ، ويرتكب الفواحش ، وكأنه لم يقرأ قول الله - تعالى - : ﴿ **وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ** ﴾[2].

وقضية ذكر الله - عز وجل - كما وردت في الكتاب الكريم على حذف مضاف، فهي هنا في آية آل عمران على تقدير : ذكروا عقاب الله ، أو وعيد الله ، أو حق الله العظيم ، على ما ذكره في تقديره الزمخشري[3] - رحمه الله - .

(1) الماعون : 4 ، 5 .

(2) العنكبوت : 45 .

(3) انظر الكشاف : 464/1 .

وكذلك قول الله - تعالى - في آية الأنفال : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[1] فالتقدير هنا : «إذا ذكر وعيد الله وجلت قلوبهم» .

وفي آية الرعد : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[2] .

فالتقدير هنا : وتطمئن قلوبهم بذكر وعد الله وهذا يفسر لنا المفارقة بين ظاهر الآيتين ، فكيف يكون ذكر الله - تعالى - سببًا في وجل القلوب ، وكيف يكون هو نفسه سببًا في اطمئنانها ؟ فالأول معناه : إذا ذكر وعيد الله والثاني معناه : إذا ذكر وعد الله ، فالوعيد يسبب الوجل ، والوعد يسبب الاطمئنان .

والله - عز وجل - يقول في آية الأحزاب : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾[3] والمعنى كما هنا ، ومعناه اذكروا أحكام دينه ، وذكر الله بهذا المعنى منهج حياة بمعنى أن يذكر العبد المكلف حكم دينه قبل أن يعمل العمل أهو حلال ؟ أو مباح ؟ أهو مكروه ؟ أهو حرام ، وهكذا ، ألست ترى كثيرًا من الناس يعملون العمل ، ثم يسألون بعد ذلك ، كهذا الذي يقول لامرأته : أنت طالق ، ثم يقول : لم أنو الطلاق ، أما كان يحسن أن يعرف أن هذا هو الطلاق الصريح ، الذي لا يحتاج إلى نية !

أليس هذا من ذكر الله - عز وجل - أي من ذكر أحكام شرعه !

ناهيك بسؤال الهواة من الدعاة ، غير العلماء الذين نذروا أعمارهم في طلب العلم وتحصيله ، أليس من ذكر الله - عز وجل - سؤال أهل العلم ؛ فقد قال الله

(1) الأنفال : 2 .

(2) الرعد : 28 .

(3) الأحزاب : 48 .

- سبحانه - : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1] فلا شك أنه من ذكر الله - تعالى - سؤال أهل العلم ، الذين هم أهل الذكر ، وغيرهم من أصحاب الخبرة في شتى الأعمال ، فَسُؤال الجاذر عن الذبائح ، وسؤال الطبيب الخبير بالطب، والفلاح الخبير بالزراعة ، والخرِّيت الخبير بالطرق ، من سؤال أهل الذكر ، وهو ذكر الله - عز وجل - الذي أمرنا بسؤالهم دون سواهم من الذين لا يعلمون .

وخلاصة القول أن ذكر الله - تعالى - أساسه انشغال الفكر والوجدان بوعده على عمل الصالحات ، ووعيده على فعل السيئات ، وتذكر أحكام شريعته : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[2] وإذا صادف ذلك ذكر باللسان فهو من ترطيب اللسان بذكر الله ، لكن ذكر الله باللسان فقط ذكر الكذابين كما قال العلماء في الاستغفار باللسان إنه استغفار الكذابين .

....

﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ .

وفي سورة آل عمران : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[3] .

كثير من الناس يفهم قوله - تعالى - : ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ على أنه دعاء على الظالمين ، والأعداء ، وليس كذلك ، فمعنى ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ

(1) الأنبياء : 7 .

(2) الأعراف : 201 .

(3) آل عمران : 173 .

﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ الله كافينا قال الزمخشري[1] : «حسبنا الله : محسبنا ، أي كافينا ، يقال : أحسبه الشيء إذا كفاه ، والدليل على أنه بمعنى المحسب أنك تقول : هذا رجل حسبك ، فتصف به النكرة ؛ لأن إضافته لكونه في معنى اسم الفاعل غير حقيقية ، ونعم الوكيل : ونعم الموكول إليه» .

وقد نزلت الآية الكريمة في المسلمين حين دُعوا من رسول الله - ﷺ - إلى متابعة المشركين صبيحة يوم الأحد السادس عشر من شوال في السنة الثالثة من الهجرة الشريفة ، وقد خوّفهم الناس من قبيل الحرب النفسية فقالوا لهم إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فما زادهم ذلك إلّا إيمانا بربهم ، فما فتّ في عضدهم ، وما أخافهم وما أرجعهم عن عزمهم ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فكانوا كما قال الله : **﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾**[2] .

وقال الله - عز وجل - : **﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾**[3] أي أن الشيطان يخون أولياءه بمثل هذه الحرب النفسية التي تفتّ في العضد ، وتضعف القوى ولكن الذي يخاف الله ، وهو من أوليائه يثبت عند الشدة متى أخذ بالسبب ، فالله حسبه ، وهو - عز في علاه - نعم الوكيل ، فمن قال «حسبي الله» وكذا من قال «وأفوض أمري إلى الله» إنما يقولها وهو منطلق إلى حركة الحياة وليس يقولها وهو نائم ، أو متناعس كما هو حال كثير من الناس الذين نراهم في مواقف كثيرة ، تسألهم : ماذا فعلتم في كذا ؟ فيقولون :

---

(1) انظر : الكشاف : 481/1 .

(2) آل عمران : 174 .

(3) آل عمران : 175 .

لم نفعل شيئًا ، قلنا: «حسبنا الله ونعم الوكيل» وكأنهم فهموا أن معنى قوله - تعالى - : ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ألا تفعل شيئًا ، أن تسكن ، وتستسلم ، فالله حسبك ، ينتقم لك ممن ظلمك ، وليس هذا المعنى صحيحًا على الإطلاق بدليل ما تقدم ، فقد خرج المسلمون برغم جراحاتهم ، مع رسول الله - ﷺ - وهم يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل ، فكفاهم الله القتال وانقلبوا - كما قال تعالى - بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ؛ ذلك لأنهم قالوا : ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ وهم يتحركون ، وينطلقون .

لم يقولوها وهم نائمون ، أو مستسلمون لأعدائهم متى شاءوا انقضوا عليهم .

ولذلك يقول المؤمن ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ وهو طالب علم ، يسعى إلى تحصيله برغم الصعاب والعقبات ، ويقولها الفلاح ، وهو يعالج الأرض بالمحراث ، والفأس ويقولها الطبيب ، وهو يعالج مريضه غير مغتر بعلمه ، وغير عاجز عن فهم حالته وتشخيصها .

وتقولها المرأة وهي مقبلة على زواج فهمت فيه ظروف المتقدم وأنها مناسبة لها ، ولكن هناك من يخوفها ويقولها رجل الأعمال الذي هو مقبل على مشروع أو على صفقة ، وقد أعد لها دراسة جدوى حقيقية وهناك من يغدره ويخوفه ، ويعده بالخسارة .

ولا يقولها كسول ، جبان ، فاهم دينه على خطأ ، ينطق أن قول الناس ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ يقولها أهل الله - الذي لا يأخذون بسبب ، ولا يعملون عملًا أو أنهم يدعون بها على من ظلمهم ، فهذا كله من قبيل الدجل ، والفهم القاصر ، الذي ينبغي أن نتخلص منه إن كنا نريد إصلاحًا وتوفيقا ، إصلاحًا لدنيانا وديننا وآخرتنا ، وليس من الإسلام أن يقول المرء لأخيه : اسكت وإلا حسبنت عليك ،

فما معنى هذا ؟ إنما الحسبنة أن يقول «حسبي الله» ، وقد فهمنا الآن معناها الصحيح فهل من مدكر !

....

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ .

وفي سورة النساء يقول الله – تعالى – : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾[1] .

قوامون مبالغة من القيام ، أي أن الرجل كثير القيام على خدمة المرأة وكأنه لا يألو جهدًا في خدمتها . فإن شئت قلت : معنى الآية : الرجال خدامون للنساء ولا تتعجب ، فقد روى البخاري وغيره من حديث عائشة – رضي الله عنها – أنها سئلت : كيف كان رسول الله – ﷺ – في بيته ؟ فقالت : كان في خدمة أهله .

فكيف فهم الناس معنى ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أنه بمعنى السيطرة والهيمنة والإمساك بالسوط والعصا ، والقهر ، والإذلال !

هذا ما أنزل الله به من سلطان ، وقد شاع هذا المعنى بين كثير من الناس خصوصًا النساء اللاتي أدّى بهن هذا الفهم الخاطئ إلى التصريح بقولهن إن الدين

(1) النساء : 34 .

يشجع الذكورة ، وقالت إحداهن : إنه دين ذكوري لا أنثوي ، وهذا فحش في القول وجناية على الإسلام ، الذي هو دين الرحمة والمودة ، والرفق بالمرأة إلى حد ، لم يعبر عنه أديب ، ولم تعرفه منظمة من منظمات أطلقت على نفسها «الإنسانية» والمرأة ، والمطلقة ، وغير ذلك ، وفي خطبة الوداع يقول - ﷺ - استوصوا بالنساء خيرًا ، وما أكثر وصاياه - ﷺ بالنساء ، وقد قال لأنجشة وكان يحدو بالنساء في السفر ، أي يغني للإبل ، فتسرع وفي ذلك مشقة عليهن : «رفقًا بالقوارير» ، ومنذ ولادة المرأة والدين يأمر برعايتها ، وجعلها في المقدمة ، حيث قال : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۞ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾[1] وفي البخاري من ربي جارية فأحسن تربيتها حتى زوجها كانت له عتقًا من النار ، وفيه أيضًا أن امرأة زارت بيت النبي - ﷺ - ولقيت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - ولم يكن في بيت الكرم والجود غير تمرة ، فأعطتها إياها وكانت معها ابنتاها ، فوضعت الأم الزائرة التمرة في فمها ، لا لتأكلها ، وإنما لتقسمها نصفين ، وأخرجتهما وأعطت كل واحدة منهما نصفها ، فقالت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - ذلك للنبي - ﷺ - فبشرها - ﷺ - بالجنة وبشر كل من أحسن في بناته بالجنة .

والكلام يطول في هذا السياق جدًّا ، لكن رب إشارة تغني عن عبارة ، الأمر الذي يدل على أن فينا انحرافًا شديدًا عن منهج الله - عز وجل - في التعامل مع المرأة ، بهذا العنف ، وتلك القسوة ، وليس في الدين شيء من هذا على الإطلاق ؛ فقد قال الله - عز وجل - : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم

(1) الشورى : 49 ، 50 .

مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾[1] .

فهؤلاء لا يمكن أن يكون منهم عنف ، ولفظ «عنف» غير وارد في معجم المسلمين ؛ فقد قال أهل اللغة إنه التصرف بحمق ، والمسلم لا يكون أحمق بحال ، وإن اعتراه الحمق حينا فهو يتوب إلى الله - عز وجل - منه ؛ لأنه منيب إلى ربه أواب ، وقد قال - عز وجل - : ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2] .

ولكن يوصف المسلم بالشدة ، كما قال الله - تعالى - ولكنها شدة على الكاذبين ، لا على المؤمنين ، وقد قال الله - عز وجل - : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[3] .

فمن صفات الذين يحبهم الله - عز وجل - ويحبونه ، أنهم أذلة على المؤمنين ، أعزة - أي أشداء - على الكافرين ، أما بينهم وبين بعضهم فكل منهم ذلول لأخيه ، وفي الصحيح يقول النبي - ﷺ - : «المسلم أخو المسلم» وتقتضي الأخوة ألا يقسو عليه ، وأن يرحمه ، قال - تعالى - في مقتضى الأخوة : «﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾[4]» .

وقال - ﷺ - فيما رواه البخاري : «**خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي**» وليس من الخيرية أن يقسو المرء على أهله ، وقد سبق ذكر الحديث الصحيح الشريف «**كان - ﷺ - في خدمة أهله**» .

(1) الفتح : 29 .

(2) النور : 31 .

(3) المائدة : 54 .

(4) يوسف : 69 .

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1] .

سمعت إحدى الكاتبات الصحفيات على إحدى الفضائيات تصدع بها فهمت وفهمه كثير من الناس لا سميا النساء وتقول : «واحدة ، يتزوج المسلم واحدة ، لأن الله يقول : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾[2] وقال : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾[3] يعني مستحيل أن يعدل الزوج بين أزواجه ، وما دام ذلك مستحيلًا فواحدة ... فـ «إيه» ؟ فواحدة ، وضحكت ، وصفق لها الحضور .

مسرحية ، ملهاة ، كما يقول أهل الأدب والنقد ، وسمعت ذلك من أكثر من امرأة تحمل ورقة عالية في الثقافة .

وقول الله – تعالى – : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ ليس معناه على هذا النحو العجيب الذي تستنبط منه امرأة مع أسمى آيات الاحترام والتقدير لكل امرأة على وجه الأرض ، وهي غير قادرة على الاستنباط أنه لابد من واحدة .

وإنما معناه الرحمة من الله بالرجال الجامعين بين أكثر من زوجة ، فقد ذكر أنهم لن يستطيعوا العدل بين النساء وإن حرصوا ؛ لذلك قال : ﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾

(1) النساء : 129 .

(2) النساء : 3 .

(3) النساء : 129 .

لم يقل : فلا تتزوجوا إلَّا واحدة ، يعني : يا معشر الرجال ، إني أنا ربكم ، وأعلم بكم في هذه المسألة وفي غيرها ، إنكم لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل إلى واحدة دون أختها ، فينتج عن ذلك أن تكون أختها كالمعلقة ، التي لا هي زوجة ولا هي مطلقة والميل هنا هو الميل القلبي ، وإلَّا فالعدل في القسمة المادية واجب شديد ، وقد قال - ﷺ - في الحديث الذي رواه أبو داود عن عائشة - رضي الله عنها - : «**اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**» يعني القلب وهو مرسل على الصحيح[1] .

وقول الله - تعالى - : ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ** ﴾ يشهد به واقع الحياة ؛ حيث إن هناك زوجة تأسر زوجها بحسن عشرتها ، وبجمالها وبملاطفتها إياه ، وبادخارها له شيئًا مما يحب ، وبغير ذلك من أسرار القلوب ، التي لا يملكها الإنسان ، وإنما هي بيد الله - عز وجل - يقلبها حيث يشاء .

من أجل ذلك قال الله - ربنا - : ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ** ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ **فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ** ﴾ ثم قال : ﴿ **وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ .

قال ابن كثير : «أي وإن أصلحتم في أموركم ، وقسمتم بالعدل فيما تملكون ، واتقيتم الله في جميع الأحوال غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض»[2] .

فانظر إلى آيات رحمة الله بعباده ، ثم تعجب من سوء فهمنا لآيات الله ، الأمر الذي يؤدي إلى الجور على أحكام الشريعة الغراء ، كما رأيت من صياح الكاتبة التي

(1) انظر : البداية والنهاية ، 1/ 564 .

(2) المصدر السابق : 1/ 564 .

كانت تزهو باستنباطها وأنها تفوقت على علماء المسلمين قديمًا وحديثًا ، وهديت إلى معرفة الحق ، وهي بلا شك أبعد ما تكون عنه في ذلك !

....

﴿ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ .

يقول الله – عز وجل – :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] .

أبدأ بما قاله ابن كثير[2] حيث قال ما نصه ﴿ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ : قال سفيان الثوري عن طلحة عن عطاء عن ابن عباس أي القربة ، وكذا قال مجاهد ، وأبو وائل ، والحسن ، وقتادة ، وعبد الله بن كثير ، والسدي ، وابن زيد وغير واحد ، وقال قتادة : أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه ، وقرأ ابن زيد ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾[3] وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه ، وأنشد عليه ابن جرير قول الشاعر :

إِذَا غَفِلَ الوَاشُونَ عُدْنَا لِوَصْلِنَا   وَعَادَ التَّصَافي بَيْنَنَا وَ الوَسَـائِلُ

والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود ، والوسيلة أيضًا عَلَمٌ على أعلى منزلة في الجنة ، وهي منزلة رسول الله – ﷺ – وداره في الجنة وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش ، وقد روى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال :

---

(1) المائدة : 35 .

(2) البداية والنهاية (ابن كثير) : 52/2 .

(3) الإسراء : 57 .

قال رسول الله - ﷺ - : «**من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته**» إلّا حلت له الشفاعة يوم القيامة .

وأقف عند قول ابن كثير : «وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه» لأقول : فكيف خالف كثير من الناس جميع المفسرين فيه وظنوا أن الوسيلة هي التوسُّل إلى الله - عز وجل - بالأضرحة ، والأمكنة المباركة !

ذلك تفسير هوى أَلَّفوه ، من ميرات لا صله له بصحيح الدين ، فكونك تزور القبور بما فيها الأضرحة لا يعني أنك تتوسل إلى الله بساكنيها أو بزائر بها ، فهم في حاجة إلى دعائك ؛ لأنهم أفضوا إلى ما قدموا وما من ميت إلّا ويصلي عليه الناس ، والصلاة دعاء له بالرحمة والمغفرة ، ومن دعائنا على موتانا «اللهم إنْ كان محسنًا فزد في إحسانه ، وإن كان مسيئًا فتجاوز عن سيئاته ، ولقِّه برحمتك الأمن إلى يوم القيامة» .

ويبدو أن لهذا سببًا أساسًا هو العادة المتوغلة في فكر الناس ، ترى ذلك واضحًا في طالب علم يحصل على تقدير «ممتاز» بجهده وتحصيله ، ولا يكتفي بذلك ، بل يتصل بعزيز على والده أن يوصى عليه في الامتحان ، ويلح على شيخه أن يعامله بالرأفة ، وغير ذلك .

ومثله مئات ، بل ألوف من الناس ، ترى الواحد منهم يستطيع أن ينال ما يرجو بجهده وعقيدته ، وعلمه وماله ، ومع ذلك يصر إصرارًا على الواسطة مع أنه ليس في حاجة إلى تلك الواسطة .

وقد يقول قائل : إنه ربما يفعل ذلك لعلمه أن هذا مما عمت به البلوى في البلد ، وقد شاع بين الناس أنه لا شيء يقضى في هذا البلد إلا بواسطة إلى درجة أن هؤلاء الذين ينجحون بجهدهم في امتحانات العلوم ، وقيادة السيارات ، وغيرها يظنون

أنهم نجحوا بهذه الواسطة لا بجهدهم ، وذلك من هيمنة الفكرة السيئة عليهم واستحواذها على عقولهم واستقرارها في وجدانهم ، وهذا لا ينكر ، ويمكن أن يكون إضافة إلى ما سبق ذكره ، فهو مما يعضده ، اعتقاد ، ومناخ يساعد على نشر هذا الاعتقاد .

وقد تسرب ذلك إلى العقيدة ، فتوهم أناس كثيرون أن العمل الصالح الذي هو المراد بقوله – تعالى – : ﴿ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ لا يكفي للوصول إلى رحمة الله ، وإنما يكون معه التوسل بالصالحين وغيرهم وهذا لا يصح ، ويكفي قول ابن كثير : «لا خلاف فيه بين الأئمة» .

....

﴿ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ .

يقول الله – تعالى – : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾[1] .

فهم بعض الناس من قديم أن جملة ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ حال ، وذكر ابن كثير أن منهم من اختلق قصة لعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه – بأنه أعطى مسكينًا وهو راكع يقول الآلوسي[2] : ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ حال من فاعل الفعلين ، أي يعملون ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون ومتواضعون لله تعالى .

وكذلك قال الزمخشري[3] : ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ الواو فيه للحال ، أي يعملون ذلك في حال الركوع وهو الخشوع والإخبات ، والتواضع لله ، إذا صلوا وإذا زكوا .

---

(1) المائدة : 55 .

(2) روح المعاني : 4/ 898 .

(3) في الكشاف : 1/ 624 .

وذكر - رحمه الله - ما نسب إلى علي - رضي الله عنه - بأنه خلع خاتمه وهو راكع ، وأعطاه السائل ، فكان ذلك عملًا عظيمًا ، لا تبطل بسببه الصلاة وأشار ابن كثير إلى هذه القصة دون أن يذكر لها سندًا ، وبين أنها من أقوال مَنْ رأى جملة ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ حالًا ، وذكر أن ذلك ليس بصواب .

أي وهم راكعون في إيمانهم ، وهم راكعون في صلاتهم ، وهم راكعون في زكاتهم ، أي خاشعون لله - عز وجل - في كل عمل يعملونه ، وقد قال - تعالى - : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾[1] .

وقال - عز من قائل - : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾[2] وقال سبحانه : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾[3] ولن يؤتي المال على حبه ، ولن يطعم الطعام على حبه إلّا من كان راكعا له ، يؤثر ما عنده على ما في يده ، فما عند الله خير وأبقى ، وقال - سبحانه - : ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾[4] . خرج النبي - ﷺ - من مكة وهي أحب بلاد الله إلى نفسه ، وما كان ذلك إلّا امتثالًا منه لأمر الله - عز وجل - لينشر دينه ، وليكون لدينه دولة هي المدينة المنورة ، وليجاهد في الله حق جهاده .

(1) المؤمنون : 1- 4 .

(2) البقرة : 177 .

(3) الإنسان : 8 .

(4) الأنفال : 5 .

وقد ذكر العلماء أن الزكاة يخرجها البخيل وكأنه يخرج نفسه من بين ضلوعه ، لكن امتثاله لأمر الله يجعله يخرجها ، وما أطيب أن يتحلى المكلف بالخشوع لله – عز وجل – في كل عمل يعمله ، فليس معنى الآية الكريمة أن يتصدق المسلم أو يخرج زكاته وهو في حال ركوع .

وقد يقبل ما ذكره الزمخشري من توجيه فيما نسب إلى الإمام عليٍّ – رضي الله عنه – من الناحية الفقهية ، بأنه عمل خفيف أو يسير لا تبطل بسببه الصلاة ، لكن يجوز أن يكون ذلك – إن صح – في أول الأمر ثم نسخ ، كما كان الكلام جائزًا في الصلاة ، كان الرجل يأتي الصلاة مسبوقًا فيقف إلى جوار رجل ممن سبقه ، ويقول له : كم صليتم ؟ فيرد عليه قائلًا : ركعة أو ركعتين فنهوا عن ذلك ، وكذلك هنا ، فلا يقال : إن ذلك جائز اليوم .

....

﴿ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾(1) .

سمعت بعض الناس – وهم كثيرون – يردون على سؤال كل سائل بقولهم : إن الله – تعالى – يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ .

(1) المائدة : 101 .

وقد استغل أعداء الإسلام مثل هذه الآية خصوصًا في زماننا زمان الضعف في اللغة وغيرها ، فقالوا إن الإسلام ، يحرم السؤال ، فهل دعا بذلك إلى العلم والتحضر .

وليس حتميًا هذا الزعم الخاطئ ، فالله تعالى يقول : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾[1] ويقول ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾[2] .

وما أكثر ما ورد من سؤال الناس واستفتاءاتهم وذكر الجواب في كتاب الله - تعالى - وفي السنة المطهرة .

والله - عز وجل - يقول : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[3] .

إنما المنهي عنه ذلك السؤال الذي لا يراد به العلم وإنما يراد به المجادلة بالباطل ، وإرهاق العالم واستفزازه والسؤال عن كافة الأمور ، وغير ذلك من الأسئلة التي يعرف الناس المقصود من ورائها .

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أن عبد الله بن حذافة قال للنبي - ﷺ - مَنْ أبي ؟ فقال له رسول الله - ﷺ - أبوك حذافة .

وعلمت بذلك أمه ، فقالت له : بئس الابن أنت ما الذي أخبرك أن أمك لم تخطئ في جاهليتها أتفضح أمك بين الناس ؟!

فقال لها : ما قصدت ذلك ، وإنما أردت أن ينسبني إلى أبي ، ولو نسبني إلى حمار لا نتسبت إليه .

---

(1) البقرة :219 .

(2) البقرة : 222 .

(3) الأنبياء : 7 .

نعم هناك سؤال تكون إجابته سيئة ، فصدق الله ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ وهناك سؤال تكون إجابته سارة للسائل ، وربما للمسئول ، وما أشد حاجة الأمة إلى السؤال عن التقنيات ، وعن خطط الدول المتقدمة التي نهضت بعد أن وثبت من عثرتها ، وقد كنت أعددت دراسة من زمن يربو على عشرة أعوام كان عنوانها وموضوعها النبي - ﷺ - يسأل ، نشر منها أجزاء في مجلة «الأهرام العربي» ، أثبتُّ فيها أن النبي - ﷺ - كان يسأل سؤال من يحث أصحابه على طلب العلم «ألا أدلكم؟» «هل أدلكم؟» ، «أتدرون من المفلس ؟» ، فالسؤال ينشط المسئول ويوقظ فيه الرغبة في المعرفة ، كما كان - ﷺ - يسأل والجواب عنده ، فيدخل في هذا الباب وفي غيره كسؤاله إياهم عن شجرة كالمسلم ، لا يسقط ورقها وهي النخلة ، كما كان - ﷺ - يسأل ليعرف كسؤاله العجوز عمن غرس الحائط(1) ، مسلم أم غير مسلم فلما قالت : مسلم يا رسول الله ، سر بذلك سرورًا عظيمًا ، وقال : مَنْ يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه إنسان أو حيوان ، أو طير إلّا كان له به صدقة .

وتنوعت الأسئلة في خطابه - ﷺ - كما تنوعت في أساليب القرآن الكريم ، فكيف يظن عاقل أن للإسلام موقفًا من السؤال ، وأنه يدعو إلى السمع والطاعة التي يطلقون عليها «عمياء» وهي والله عين البصيرة ؛ فقد قال - ﷺ - إنما الطاعة في المعروف ، والإسلام كله دين المعروف .

(1) الحائط : البستان .

﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾[1] .

جرى هذا الدعاء - مع الأسف - على ألسنة الخاصة والعامة يظنون أنه دعاء خير ؛ لوجود كلمة «فتح» كأنهم يفهمون أن معنى الآية : اللهم افتح علينا وعلى قومنا ، أو افتح لنا ، ولقومنا ، وهذا خطأ كبير .

فمعنى الآية : اللهم افصل بيني وبين قومي ، إما أن تعذبهم وإما أن تعذبني ، إما أن تخسف بهم الأرض وإما أن تخسف بي .

وقد ورد ذلك في القرآن الكريم مرتين الأول على لسان شعيب - عليه السلام - في سورة الأعراف ، بعد أن دعا قومه إلى الله ، وصدوا عن دعوته وهددوه ومن آمن معه بإخراجهم من قريتهم أو أن يعودوا إلى ملتهم ، فقال - عليه السلام - : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ فانظر ماذا قال الله - تعالى - بعد آية واحدة من هذا الدعاء ؟ قال عز وجل : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ * ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ * فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾[2] .

فتح الله - تعالى - إذًا بين شعيب - عليه السلام - وأتباعه من المؤمنين ، وبين الذين كذبوه ، فأخذتهم الرجفة .

(1) الأعراف : 89 .

(2) الأعراف : 91- 94 .

والثانية في آيات سورة الشعراء على لسان نوح – عليه السلام – حين قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ * فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ * ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1] .

دعا نوح – عليه السلام – قومه كما جاء في سورة نوح ليلًا ونهارًا ، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا ، فلما كذبوه دعا الله – تعالى – بهذا الدعاء : ﴿ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فاستجاب الله دعاءه وقال كما جاء في الآيات السابق ذكرها ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ * ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴾ أي فتح الله بمعنى حكم وفصل ، فكانت النجاة للمؤمنين ، وكان الهلاك للمكذبين الكافرين فمن فينا يحب أن يفعل الله – تعالى – بقومه هذا ؟

لقد سمعت رئيس مصر السابق حسني مبارك يقول : ﴿ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴾[2] .

فآلمني ذلك يومها ، وقلت : إن الذي كتب للرئيس خطابه وكتب فيه هذا الدعاء بعيد عن الفقه ، ولو أن الدين عظيم عند الرؤساء لاستدعوا أستاذًا في التفسير أو شيخ الأزهر ، وكان وقتها أ. د/ محمد سيد طنطاوي وهو أستاذ التفسير قبل أن يتولى مشيخة الأزهر ، وعرض عليه هذا الدعاء ؛ ليبدي رأيه ، وأنا على يقين أنه كان سيقول له . لا تقل هذا ، قل : اللهم افتح علينا وعلى قومنا ، أو قل : ربنا

(1) الشعراء : 117- 122 .
(2) الأعراف : 89 .

لا تزغ قلوبنا بعد إذْ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ؛ لأن هذا الدعاء معناه أنك تسأل الله أن يفصل بينك وبين قومك .

فلما قامت ثورة 25 يناير 2011 تذكرت تلك الخطبة التي ورد فيها هذا الدعاء ، وقلت : سبحان الله فكأن أبواب السماء كانت مفتحة يومئذ ، وقد فتح الله بين حسني مبارك وبين شعبه الذي أجبره على التخلي عن منصبه ، والله المستعان ولا شماتة ، إنما هو الدرس الذي جاء في سياقه أن رجلًا دعا على دابته باللعنة ، فسمعه النبي - ﷺ - فقال : «**لا يمش في ركبنا ملعون**» .

وجاء في رواية أن الله قد استجاب دعاءه فيها ، كما وردت روايات متعددة ، ورد فيها النهي عن الدعاء على النفس والولد والدواب عسى أن تكون ساعة إجابة وروى البخاري في صحيحه قول النبي - ﷺ - : «**لا يتمنين أحدكم الموت**» وفيه وفي غيره قول رسول الله - ﷺ - لا تتمنوا لقاء العدو ، وحين زار رسول الله - ﷺ - أعرابيا ، وقال له طهور إن شاء الله ، لا بأس عليك ، قال : طهور ؟! ، بل هي حمى تفور ، على رجل كبير ، تزيره القبور ، قال - ﷺ - فنعم إذًا ، فمات من غده .

وقد قال الله - عز وجل - : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ** ﴾[1] ومن تدبُّر القرآن الكريم أن يفهم المسلم أن قوله تعالى : ﴿ **رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ** ﴾ معناه افصل يا رب بيننا ، وأهلك الظالم منا ، ونج المظلوم ، ولا شك أن هذا ليس مراد مَنْ يدعو بهذه الآية .

(1) محمد : 24 .

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ .

يقول الله – تعالى – : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[1] .

رأيت أممًا من الناس يرددون هذه الآية عند المجالس المعروفة بالعرفية ، ورأيت بعض العلماء يفسر العرف على هذا النحو ، وهذا خطأ ، فالعرف هو المعروف الجميل لا العرف الذي تعارف عليه الناس ، فهذه ورقة أخرى ، فيها أن العرف منه جميل ومنه فاسد وما أكثر الأعراف الفاسدة ، فكيف يحمل كتاب الله على عرف فاسد ، يضيع الحقوق ، ومنها الصلح الصوري القائم فقط على تقبيل الرءوس .

وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر ، بعدها إن لم تكن حاملًا يضع زواجها . وعدتها في عرف بعض الناس سنوات .

يقول الرازي[2] : وأمر بالعُرْف أي بإظهار الدين الحق ، وتقرير دلائله .

ويقول الطبري[3] : «قد أمر الله نبيه أن يأمر عباده بالمعروف لا ببعض معانيه (دون بعض) ويقول الآلوسي[4] : «وأمر بالعرف أي بالمعروف المستحسن من الأفعال» .

وفي حاشية الجمل على تفسير الجلالين : «وأمر بالعرف : يعني وأمر بكل ما أمرك الله به ، وهو كل ما عرفته بالوحي من الله – عز وجل – وكل ما يعرف في الشرع حسنه»[5] ، ويقول البيضاوي[6] : «وأمر بالعرف : المعروف المستحسن من الأعمال» .

---

(1) الأعراف : 199 .
(2) التفسير الكبير : 7/ 407 .
(3) تفسير الطبري : 9/ 166 .
(4) روح المعاني : 6/ 435 .
(5) تفسير الجلالين : 2/ 221 .
(6) تفسير القاضي البيضاوي : 4/ 247 .

ومما سبق يتبين لنا أن العرف هو ما عرفه الشرع ، والشرع لا يعرف إلَّا الجميل المستحسن من الأفعال وقد ورد في كثير من كتب التفسير أن رسول الله - ﷺ - سأل عن هذه الآية جبريل - عليه السلام - فقال أسأل ربي ، ثم قال : أن تعطي مَنْ منعك وأن تصل من قطعك ، وأن تعفو عمن ظلمك . وقد ذكرت ذلك لأبين فكرة مهمة ، وهي أن هذا من العرف الذي لا شك يتعارض مع أعراف الناس الذين يقولون : راعني قيراطًا أراعك قيراطين وترشني بالماء أرشك بالدم ، فأي العرفين أحق بأن يُتَّبع ويؤمر به ؟

....

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1] عجيب حالنا ؛ حين نضبط المذياع على إذاعة القرآن الكريم ، وينبثق منه صوت القارئ ، ونحن لا نسمع له ، ولا ننصت .

وعجيب حالنا ، حين نفعل ذلك ، في سياراتنا ويحدث بعضنا بعضًا ، والقارئ يتلو ما تيسر من آيات الله ، وكأنه يقرأ لقوم آخرين .

وعجيب حالنا ، حين نفعل ذلك في محالنا في الأسواق ؛ هذا يخرج من محله صوت قارئ في سورة البقرة ، وذاك يخرج من محله صوت قارئ آخر في سورة الحاقة ولا أحد يستمع إلى شيء ، تشويش .

وكذلك ذلك الرجل الذي خرج على المعاش وفتح مسجد حيه في الثانية صباحا قبل الفجر بساعة ، ووضع مكبر الصوت على المذياع ، ولا أحد يستمع لكتاب الله .

(1) الأعراف : 204 .

أليس في ذلك انحراف عن معنى قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

قرئ القرآن في كل مكان ، ولا أحد يستمع ، ولا ينصت ربة البيت مشغولة بشئون بيتها ، وطبخها وغسيلها والمذياع كأنه يسمع آخرين .

والتاجر في محله ، يحكي مع هذا ، ويضرب صبيه ، ويبيع سلعته ، ولا يستمع لشيء ، من القرآن الكريم كل هؤلاء يعتقدون أن ذلك من باب البركة .

استمع النبي - ﷺ - إلى صوت قارئ ، وصل إليه ، فقال : يرحمه الله ، أذكرني آية كذا وآية كذا .

معنى ذلك أنه - ﷺ - استمع إلى صوت بعيد ، أي أنصت ؛ لأن الإنصات استدعاء الصوت من بعيد .

وهذا يؤكد لنا جانبا من جوانب خُلُقِهِ - ﷺ - حيث كان خلقه القرآن ، والقرآن يقول : ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

فهل استمع أحدنا إلى الصوت المنبعث من بيت جاره ، وتذكر معه الآيات فضلًا عن تدبرها أم انشغل عنه ؟!

لا شك أنه لا يستمع ولا ينصت إلا من رحمه الله - عز وجل - لكن السواد الأعظم من الناس مشغولون عن ذلك ؛ لذلك كان من المعروف ، ومن الموعظة الحسنة أن تقول لمن قرئ القرآن الكريم في بيته اخفض الصوت حتى تسمع أنت ، ولا ترفع صوت المذياع ، فتؤثم غيرك المشغول بأعماله وأعبائه ، وتقول للأخ الذي خرج على المعاش ، وانشغل بالمساجد ، زادك الله حرصًا على الطاعة ، وليس من الطاعة أن تكبر الصوت والناس نيام ، فحقهم عليك أن ترفع الأذان فقط من خلال

مكبر الصوت ولا تشوش على غيرك ، ويشوش عليك غيرك فقد قال الله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾[1] .

ولا شك أن الذين يرتكبون ذلك يظنون أن القرآن الكريم بركة ، وهو كذلك ، ولكن ليس على هذه الطريقة ، فالبركة في هديه وكونه المنبع الرشيد لحياتنا ، ولن تتحقق البركة بإطلاق الأصوات ونحن عنها مشغولون ، فلابد من الاستماع له والإنصات فهذا هو الحق .

....

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[2] .

قال العلماء : ما كان الله ليعذب قومًا عذاب استئصال ما دام نبيهم بين أظهرهم ، وفيه إشعار بأنهم معرضون للعذاب إذا هاجر عنهم .

وقيل إن الكفار كان فيهم مسلمون ، يستغفرون وبسبب هؤلاء لم يعذب الله الكفار[3] .

وقد رأيت كثيرًا من الناس بينهم معنى الاستغفار على النحو الذي يفهم به معنى ذكر الله - عز وجل - أن يقول : أستغفر الله العظيم مائة مرة ، وألف مرة ، باللسان وحده ، والاستغفار معناه طلب المغفرة من الله - عز وجل - وأول

(1) الإسراء : 110 .

(2) الأنفال : 33 .

(3) انظر الكشاف : 2/ 156 .

ضروب الاستغفار ، وأول مراحله : الإيمان بالله وحده ، وإخلاص العمل له ، ألست ترى قول نوح - عليه السلام - : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾[1] فهل تظن أنه - عليه السلام - قال لقومه الكافرين : قولوا : نستغفر الله العظيم ، أم أن معناه آمنوا بالله ؟!

والدليل على ذلك ما جاء في أول السورة : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾[2] .

فمن آمن بالله - تعالى - واتبع نبيه فقد استغفر ، والله يغفر له .

ومَنْ أصلح واتقى : ﴿ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[3] فقد استغفر .

ومَنْ آمن وهاجر وجاهد بماله ونفسه في سبيل الله فقد استغفر : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4] .

ومَنْ لزم حدود الله - تعالى - في المواريث ، وأعطى كل وارث حقه ، فقد استغفر الله : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[5] .

(1) نوح: 10 .
(2) نوح : 1 - 4 .
(3) النساء : 129 .
(4) البقرة : 218 .
(5) النساء : 13 .

أما الذي عصى الله ورسوله ، وتجاوز حدود الله في المواريث فظلم إخوته أو غيرهم من الورثة ، فهو مهدد بالعذاب المهين ، وإن استغفر باللسان ألوف المرات ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾(1) .

ومن تاب من ذنبه ، وعمل عملًا صالحًا بعد توبته فقد استغفر الله – تعالى – : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(2) .

وهكذا ، كان من سلك سبيلًا راشدًا في طاعة الله – تعالى – ورسوله – ﷺ – فقد استغفر الله ، أي طلب مغفرته ، ألست ترى الحديث الصحيح : «**مَنْ سَلكَ طريقًا يلتمِسُ فيهِ عِلمًا سهَّلَ اللهُ بهِ طريقًا إلى الجَنةِ**» .

وماذا يبتغي المستغفر غير الجنة ؟ معنى ذلك أن طالب العلم يستغفر الله – عز وجل – بطلبه .

وفي البخاري يقول النبي – ﷺ – : «**اتَّقُوا النَّار ولَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**» .

فمن تصدق – ولو بشق تمرة – فقد استغفر الله – عز وجل .

وقد روى الإمام ابن أبي جمرة في كتابه (بهجة النفوس) قول رسول الله – ﷺ – : «**مَصَانِعُ المعْرُوفِ تقي مَصَارِعَ السُّوءِ**» .

فما كان الله – عز وجل – ليعذب مَنْ يستغفره بالعمل الذي يرضيه ، ولا بأس باستغفار اللسان مع العمل ؛ فهو كما ذكرت في ذكر الله – تعالى – من باب ترطيب اللسان ، أما أن يكون الذكر والاستغفار مجرد كلمات فهذا ليس من الذكر ، ولا من الاستغفار .

---

(1) النساء : 14 .

(2) الفرقان : 70 .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾[1] .

رأيت كثيرًا من الناس يفهمون هذه الآية على ذم الكنز والمال ، والتكالب على الدنيا ، وأن مَنْ جمع مالًا سوف يكوى به في نار جهنم .

وباب ذم الدنيا والأموال معروف عند طائفة معينة يطلقون على أنفسهم «الزهاد» وليس معنى الزهد العزوف عن الدنيا ، وتطليقها - على حد تعبيرهم بالثلاث ، طلاقًا بلا رجعة ، وإنما معناه أن تجمع الدنيا بما فيها ، شريطة ألا تصل إلى قلبك ، أن يكون معك ، فتؤثر غيرك على نفسك ، وتقنع باليسير ولكن على أن يكون معك الكثير .

ونحن مأمورون بالغنى لا الفقر ، وبالعمل لا الكسل ، وبالعمل من أجل الزكاة ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾[2] أي يعملون عملًا خاصًا من أجل أن يكونوا من المزكين ؛ فاجمع كنوز الأرض من وجه حلال ، وأدِّ زكاتها ساعتها لن تكون من الكانزين ، الذين مصيرهم ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ .

---

(1) التوبة : 34 ، 35 .

(2) المؤمنون : 4 .

قال الزمخشري[1] : «قيل نسخت الزكاة آية الكنز ، وقيل : هي ثابتة ، وعن النبي - ﷺ - ما أُدِّي زكاته فليس بكنز ، وإن كان باطنا ، وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كنز ، وإن كان ظاهرًا ، وعن عمر - رضي الله عنه - أن رجلًا سأله عن أرض له باعها ؛ فقال : احرز مالك الذي أخذت احفر له تحت فراش امرأتك ، قال : أليس بكنز ؟ قال : ما أدى زكاته فليس بكنز .

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - كل ما أديت زكاته فليس بكنز ، وإن كان تحت سبع أرضين ، وما لم تؤد زكاته فهو الذي ذكر الله - تعالى - وإن كان على ظهر الأرض .

ثم ذكر حديث من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها ، وأن رجلًا توفي فوجد في مِئْزَرِهِ دينار ؛ فقال رسول الله - ﷺ - كية ، وتوفي آخر فوجد في مِئْزَرِهِ ديناران ؛ فقال : كيتان ، ثم قال : قلت : كان هذا قبل أن تفرض الزكاة ، فأما بعد فرض الزكاة فالله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالًا من حيث أذن له فيه ، ويؤدي عنه ما أوجب عليه فيه ثم يعاقبه ، ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبيد الله - رضي الله عنهم - يقتنون الأموال ، ويتصرفون فيها ، وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية ؛ لأن الإعراض اختيار للأفضل ، والأدخل في الورع والزهد في الدنيا ، والاقتناء مباح ، موسع ، لا يُذَمُّ صاحبه ، ولكل شيء حد ، وما روي عن عليّ - رضي الله عنه - : أربعة آلاف فما دونها نفقد ، فما زاد فهو كنز كلام في الأفضل» .

وما قاله الزمخشري : «لأن الإعراض اختيار للأفضل» هذا بالنسبة إلى فكرهم ، وليس من باب الضرورة أن يكون الإعراض أفضل ؛ فإن من عباد الله - تعالى - من لا يصلحه إلّا الغنى ، ولو افتقر لفسد حاله .

(1) الكشاف : 2/ 187 .

لكن لب القضية يكمن في قوله - رحمه الله - : «وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية» فقد صار المعرضون عن اقتناء الماء اليوم يعترضون ، وتلك هي المشكلة، تراها في الذين يهجمون على سيارة أصابت طفلًا أو شاة على طريق قريتهم ، ويكسرونها ويضربونه ، لا حبا في الطفل أو الشاة ، وإنما كراهية للغنى وأصحابه ، حتى وإن كان قائد السيارة مجرد سائق ، لا يملك السيارة ، وهذا ليس من الإسلام في شيء ، وخلاصة القول أن مَنْ أدى زكاته من المال ولو زاد على ما جمعه قارون فليس بكنز .

....

﴿ ألا إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1] .

أليس عجبًا أن نكتب هذه الآية على الأضرحة ، وأن نوقفها على أصحاب الأضرحة ، مع أن الله - عز وجل - يقول ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ فوسَّع ربنا ، وضيق الناس كالذي جاء رسول الله - ﷺ - وعرض عليه الإسلام ، فدخلته البهجة ؛ فقال : اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا ؛ فقال له - ﷺ - : ضيقت واسعًا أو حجرت واسعًا .

ولكن هل ضيقنا نحن معنى الولاية بسبب بهجة دخلتنا ، أم بسبب شيء ما في صدورنا ، كأنه نوع أنانية ، أو امتداد لأنانية ، فنحن لا نعترف بالأولياء الرموز ،

(1) يونس: 62- 64 .

وإنها نعترف بالأولياء الأعلام ، المعروفة أماكنهم ، وأضرحتهم ، ومساجدهم ، نعظمهم ، ونخترع من أجلهم الكرامات ، ونلتصق بجدرانهم ، ونتمسح بترابهم إلى غير ذلك مما هو صحيح ، وما هو فاسد .

وأعني بالأولياء الرموز الأولياء الذين لا نعرف أسماءهم ، ولا أماكنهم ، قد يكون منهم حارس عمارة أمين ، وعامل نظافة وامرأة صابرة ، وفتاة طاهرة ، وفلاح مجاهد ، وأستاذ جامعة موسوعة في العلم ، لا يعوق طلابه ، ولا يرتشي ، ولا يرهق أبناءه في شراء الكتب التي قام بتأليفها ، وطبيب يحتسب عند الله عمله ، ولا يتخذ من المستشفى الذي يعمل فيه معبرًا إلى عيادته الخاصة ، ولا يفتح رأس مريض ، وهو يعلم أنه ليس في حاجة إلى إجراء تلك العملية ، لكنه أوهمه بضرورة إجرائها لما رآه غنيا قادرًا على دفع المبلغ الكبير أخبرني بذلك أحد أساتذة المخ والأعصاب ، وقد يكون هذا الوالي أمين مخازن في شركة ما ، أو في مؤسسة ما ، وهو فعلًا اسم على مسمّى ، أمين على الأوراق ، وتلك وظيفته وأمين على الواقع . حيث لا يغل ﴿ **وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ** ﴾[1] ولا يخون ، ولا يهادي أهله وأصدقاءه مما هو أمين عليه .

ما لا يحصى عددهم من أولياء الله الصالحين ننكرهم ولا نعرفهم ، وننسلخ منهم ، ولا ندنو من ذكرهم ؛ لأننا توقفنا عند أصحاب الأضرحة ، دون سواهم فمن يزاحمهم ، ومَنْ يكون امتدادًا لهم إلّا من قام بشرف الخدمة في بلاطهم ، أي في أضرحتهم .

---

(1) آل عمران : 161 .

فهؤلاء هم الورثة للولاية ، وهذا كما ذكرت فيه تضيق لواسع ولله در الزمخشري[1] - رحمه الله - حيث قال ﴿ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ ﴾ : الذين يتولونه بالطاعة ، ويتولاهم بالكرامة ، وقد فُسِّر ذلك في قوله ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ فانظر إلى قول العلّامة «وقد فسر ذلك في قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾» . فلماذا يصر كثير من الناس على عدم قبول هذا التفسير الإلهي ، ويقبلون فقط التفسير الموروث وهو أولئك النجوم المعروفون في القرى والمدن ، في شرقي البلاد وغربيِّها .

وقد قال رحمه الله - في هذا الموضوع - : «وعن سعيد بن جبير أن رسول الله - ﷺ - سئل : مَنْ أولياء الله ؟ فقال : هم الذين يذكر الله برؤيتهم ، يعني السمت والهيئة وعن عباس - رضي الله عنهما - الإخبات والسكينة ، وقيل : هم المتحابون في الله ، وعن عمر - رضي الله عنه - سمعت النبي - ﷺ - يقول : إن من عباد الله عبادًا ما هم بأنبياء ، ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله ، قالوا : يا رسول الله ، خبرنا مَنْ هم ؟ وما أعمالهم ؟ فلعلنا نحبهم قال : هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم قرأ الآية ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ . وهؤلاء كثيرون بحمد الله فكيف نضيق ما وسعه الله .

(1) الكشاف : 2/ 243 .

﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا ﴾ .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾[1] .

وفيها أيضًا على لسان هود – عليه السلام – : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾[2] .

وفي سورة الطلاق يقول الله – تعالى – : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾[3] .

وفيها يقول الله – تعالى – : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾[4] .

وفي سورة نوح يقول الله – عز وجل – : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾[5] .

(1) هود : 3 .
(2) هود : 52 .
(3) الطلاق : 2 ، 3 .
(4) الطلاق : 5 .
(5) نوح : 10- 12 .

جميع هذه الآيات وغيرها على خلاف ما عليه كثير من الناس الذين يعلنون أن الإيمان والتقوى سبب في شقاء المؤمن وتعاسته وسوء أحواله ، ألست ترى إلى قول الناس إن فلانا يعيش أسعد حياة ؛ لأنه مفرط في أمر دينه ، يعرف من أين تؤكل الكتف ، وهو يلعب بالأوراق الثلاثة وهو كذا ، وكذا ، وكذا .

وانظر إلى فلان ، كم يشقى ويكابد ويعاني ، الأمرين ، والثلاثة ، وهو في ضيق من العيش ، وشدة ، وغير ذلك ، إنه لم يدخل ولدًا من أولاده مدرسة أجنبية ولم يشتر سيارة ، ولم يتنزه يومًا في متنزه كما يفعل كثير من الناس ، إلى آخر مظاهر البؤس والشقاء ، أتدري لماذا ؟ لأنه ملتزم ، لا يرضى بالحرام ، ولا يغضب الله – عز وجل – إنه يتقي الله !

وكم من صادع بهذا الأمر ، يقول : لقد عانيت في حياتي أشد معاناة ، وقاسيت ، وكذا وكذا ؛ وكان أمامي مكان الفرصة الواحدة كثير ، رُمِيَتْ تحت قدمي الألوف المؤلفة ، وعرضت عليّ الكنوز ، والمناصب وغيرها ، لكنني أبيت ، ورفضت .. جميع ذلك خوفًا من الله – عز وجل – .

إلى درجة أنه كاد يستقر في أذهان الناس هذا المعنى وهو أن التقي شقي ، وأن الفاجر سعيد .

ومنهم مَنْ يذكر حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – الذي رواه السيوطي في الجامع الصغير «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» .

وقد شرحه العلامة المناوي في موسوعته «فيض القدير» ، وذكر قصة ابن حجر – رحمه الله – حين لبس أبهته ، ومضى إلى القضاء في موكبه ، ومرّ بالسوق ، فخرج إليه منها يهودي يعمل في الزيت ، وهو رث الهيئة ، فاستوقفه ، وسأله عن هذا الحديث : كيف تكون الدنيا سجنه على ما هو فيه ، وجنة مثله على ما هو فيه ؟!

فأجابه ابن حجر بقوله : ذلك يوم القيامة ، إذا أدخلني الله الجنة عرفت أنني كنت في الدنيا في سجن على ما تراني عليه ، وإذا أدخلك الله النار عرفت أنك كنت في الدنيا في جنة على ما أنت فيه ؛ فأسلم اليهودي .

إننا يجب أن نعتقد أن الله - عز وجل - يكرم المؤمنين ويرزقهم رزقا حسنا ، وذلك صريح القرآن الكريم وهو بلسان عربي مبين ، كيف يقول الله - عز وجل - ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[1] ونقول نحن محروم ؟! وقد قرأت آية الأنفال حيث يقول الله - فيها - : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[2] وبدا لي في نورها أن الفقر يجب أن يكون في حياة المؤمنين ذكريات ، حالة ، لا حياة بدليل هذه الآية الكريمة ، التي يقول فيها ربنا - تعالى - للمسلمين ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟﴾ هذا ما جعلني أقول إنه في حياة المسلمين ذكريات ، وحالة ، مروا بها . أو سوف يمرون بها ، عرض لا يدوم ، وكأنه من الابتلاء ، والدنيا بكل ما فيها ابتلاء ، والابتلاء كما نعلم بشيء من الخوف والجوع والنقص من الأموال والأنفس والثمرات كذا قال الله ربنا في سورة البقرة ، لكنه ليس استئصالًا للنعم ، ولا ذهابا بجميع الخيرات ، فذلكم العذاب لا الابتلاء .

وفي الابتلاء يقول الله - تعالى - : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[3] وما عسى أن تظن بامرئ ابتلي فقال ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[4] فقال بشرى ربه

(1) الطلاق : 3 .
(2) الأنفال : 26 .
(3) البقرة : 155 ، 156 .
(4) البقرة : 156 .

الكريم هل تظن به إلّا كل خير ممن بيده الخير ؟! ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] .

أما أن يعيش المسلم حياته كلها في فقر وبؤس وشقاء فهذه مسألة أخرى ، التحقيق فيها أنه هو الذي اختار ذلك لنفسه ، وارتضاه منهجا لعيشه ، فكسل ولم يعمل ، وتواكل ولم يتوكل ، ونام ، ولم يقدم ، ولعبت به الأهواء والمذاهب المنحرفة حتى ظن أن هذا حظه ومكتوبه ولا مفر منه ، وهو خلاف ما عليه واقع الدين ، الذي يدعو إلى الكسب ، والسعي والابتغاء من فضل الله ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[2] وفضل الله عظيم ، ورحمته أوسع من أن يتصور لها إنسان حدًّا ، قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[3] .

ونحن نتأمل قول الله – تعالى – : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴾[4] .

ما قال ربنا – تعالى – كلا كفاه ما أعطيناه ، وإنما قال : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴾[5] ، فالدنيا لا تساوي عند الله شيئًا ، ولو كانت تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء .

---

(1) آل عمران : 26 .

(2) الجمعة : 10 .

(3) المدثر : 11 - 16 .

(4) الأعراف : 156 .

(5) المدثر : 16 .

والذي يغفل عنه كثير من الناس أن الطمع في الله – عز وجل – وواسع فضله ورحمته عين اليقين ، بخلاف الطمع فيما عند الناس ولله در القائل من قديم :

الله يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سَؤَالَـهُ وبُنَـيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

ولذا قال الله – عز وجل – : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[1] فانظر كيف نهانا عن تمني ما فضل به بعضنا على بعض ، وأمرنا بسؤاله – عز وجل – من فضله .

فلا تلتفت إلى من يقول : «رضا .. نعمة .. كفاني» وقد روى البخاري في صحيحه أن أيوب – عليه السلام – كان يغتسل ، ونزلت عليه فراشات من ذهب ، فأخذ يجمعها في ثوبه ؛ فقال الله – تعالى – له : ألم أغنك ؟ قال : يا رب لا غنى لي عن مزيد فضلك .

ومن دعاء سيدنا محمد – ﷺ – «**اللهم زدنا ولا تنقصنا**» .

ومن دعائه الثابت في صحيح البخاري وغيره «**اللهم إني أعوذ بك من الفقر**» وما كان ينبغي للذين نسبوا الفقر إلى رسول الله – ﷺ – أن يفعلوه .

فقد أغناه الله – عز وجل – وقال : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾[2] وأحل له خُمس الغنائم ، ما أحلها لنبي قبله ، والنبي – ﷺ – لم يكن يقول لسائل : لا ، إنْ وجد عنده حاجته أعطاه ، وإن لم يجدها قال له : ابْتَعْ عليّ ، أي اشتر ما شئت ، وعليّ

(1) النساء : 32 .

(2) الضحى : 8 .

حسابه ، وقد جاء أعرابي بغنم والنبي - ﷺ - في سفر مع أصحابه ، فلما رآه مقبلًا عليهم بغنمه سأله :

- هدية أم بيع ؟

- فقال : بيع .

فاشترى منه - ﷺ - وذبح لأصحابه وحين هاجر - ﷺ - اشترى من أبي بكر - رضي الله عنه - راحلته ، قال السهيلي : لأنه أراد أنْ تكون هجرته في الله - عز وجل - بنفسه وماله .

وحين بركت ناقته عند مربد لغلامين من بني النجار قال - ﷺ - لأوليائهما : ثامنوني .

وما استدان - ﷺ - لنفسه ، وإنما كان يستدين للمساكين كما قال ابن عبد البر في التمهيد وعلى ذلك يحمل حديث البخاري «مات رسول الله - ﷺ - ودرعه مرهونة عند يهودي» ما رهنها من أجل شعير لنفسه ، وإنما من أجل مساكين . أكل النبي - ﷺ - الحلواء ، وشرب العسل واللبن وكان يأكل من الشاة الكتف ، ونام على سرير من ساج وهو خشب يصنع في الهند ، ووضع الطيب ، ولبس أجمل الثياب ، وقبل الهدية وأثاب عنها بخير منها ، وقد كان خلقه - ﷺ - القرآن ، والقرآن يقول : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾[1] .

ولا شك أنه أهدى مَنْ أهداه خيرًا مما أهداه ، وقد أعطى أعرابيًا إبلًا ردًّا لهدية صغيرة ، ظل يعطيه حتى رضي ، وهو سبب قوله - ﷺ - هممت ألّا أقبل هدية إلّا من قرشي أو هذلي أو ثقفي ... الحديث .

(1) النساء : 86 .

وأعطى - ﷺ - رجلًا غنمًا بين جبلين فانظر كيف كان العدد .

وأعطى - ﷺ - رجلًا ضربه بشيء في يده لما أوجعت ناقته رجله الشريفة ثمانين شاة عوضًا عن احتمال تألمه ، وقال له : لعلنا أوجعناك بالأمس .

وكان - ﷺ - يدخر لأهله قوت سنة ويدخر أسهمًا للنوائب ، ويشتري بما بقي من خطه بما فتح الله عليه سلاحًا ، وسلعًا للمساكين .

والثابت أنه - ﷺ - لما فتح الله عليه كان يقول : «**مَنْ مات وله مال فلورثته ، ومن مات وعليه دين فأنا وليه ، وعليَّ قضاؤه**» .

ويبدو - من غير شك - أننا نتبع النبي ونصلي عليه ولا نعرفه حق المعرفة ، يدلك على ذلك ما سبق ذكره من نفي الفقر عنه - ﷺ - وكفاك نورًا وبيانا شافيا قوله - ﷺ - : «**لست على هيئتكم ، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**» .

وقد سأل سليمان - عليه السلام - رب العرش العظيم ، فقال : ﴿ **رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ** ﴾[1] .

وقد استجاب الله - تعالى - فسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ﴿ **وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ** ﴾[2] وقد قال بعض العلماء : إن النبوة لا تتعارض مع الملك بدليل أن سليمان - عليه السلام - كان ملكا ، وقد قال الله - عز وجل - : ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا** ﴾[3] .

(1) ص : 35 .

(2) النساء : 54 .

(3) النمل : 17 .

وقال يوسف – عليه السلام – : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[1] .

وقال موسى – عليه السلام – : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[2]

قال الله – عز وجل – : ﴿ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾[3] .

وجاء أباها ، وقص عليه القصص ؛ فقال له : لا تخف نجوت من القوم الظالمين .

فأي فكر يذهب إلى خلاف ذلك منحرف عن الجادة ، وهو أحد الأسباب المهمة التي أدت إلى تخلف الفرد والأمة .

إنما يكون الفقر نعمة من الله – عز وجل – إذا بذل المرء كل جهد ، وأخلص في عمله ، وأخذ بكل الأسباب ولم يحظ في النهاية بالنتيجة المرجوة التي قد يحصل عليها غيره ، عندئذ يحمد الله – عز وجل – وهو يتلو قوله : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾[4] .

(1) يوسف : 101 .

(2) القصص : 24 .

(3) القصص : 25 .

(4) الشورى : 27 .

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ .

يقول الله – تعالى – : ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾[1] .

يظن بعض الناس وفق ظاهر الآية أن الله إذا أراد أن يهلك قرية أمر المترفين فيها بالفسق ، فيفسقون ، فيستحقون التدمير .

وليس هذا صحيحًا : لأن الله – عز وجل – لا يأمر بالفحشاء ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ * قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِ ﴾[2] والله – عز وجل – يأمر بالعدل والإحسان ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾[3] إنما المعنى الصحيح أنه مجاز ، أي غمرهم الله بالنعم فكانت النعم التي بين أيدي المترفين سببًا في فسادهم ، فكان ما كان من تدمير .

أو أن الله – عز وجل – أمرهم بالحق ، ففسقوا ولم يرتض ذلك الزمخشري حيث قال : «فإن قلت : هلّا زعمت أن معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا ؟ قلت : لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز ، فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه ، وذلك أن المأمور به إنما حذف ؛ لأن ﴿ فَفَسَقُوا ﴾ يدل عليه ، وهو كلام مستفيض ، يقال : أمرته فقام ، وأمرته فقرأ لا يفهم منه إلّا أن المأمور به قيام أو قراءة ، ولو ذهبت تقدر غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب ، ولا يلزم على هذا قولهم : أمرته

(1) الإسراء : 16 .

(2) الأعراف : 28 ، 29 .

(3) النحل : 90 .

فعصاني ، أو لم يمتثل أمري ؛ لأن ذلك مناف للأمر مناقض له ، ولا يكون ما يناقض الأمر مأمورًا به ، فكان محالًا أن يقصد أصلًا ؛ حتى يجعل دالًّا على المأمور به ، فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ، ولا منوي ؛ لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوي لأمره مأمورًا به ، وكأنه يقول : كان مني أمر فلم تكن منه طاعة ، كما أن من يقول : فلان يعطي ويمنع ، ويأمر وينهى ، غير قاصد إلى مفعول ، فإن قلت : هلّا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء وإنما يأمر بالقصد والخير دليلًا على أن المراد : أمرناهم بالخير ففسقوا ؟ قلت : لا يصح ذلك : لأن قوله : ففسقوا – يدافعه ، فكأنك أظهرت شيئًا وأنت تدعي إضمار خلافه ، فكان صرف الأمر إلى المجاز هو الوجه»[1] .

ويقول البيضاوي : «أمرنا مترفيها : متنعميها بالطاعة على لسان رسول بعثناه إليهم»[2] .

وقد ذكر ما ذكره الزمخشري من الحمل على المجاز .

ورد الشهاب الخفاجي كلام الزمخشري في الموضع السابق الذي أشرت إليه بأن الضد يدل على الضد ، كما أن النظير يدل على نظيره ، كقولهم أمرته فأساء ؛ أي أمرته بالإحسان فأساء ، بقرينة المقابلة بينهما المقتضية بالعقل الدال على أنه لا يؤمر بالإساءة ، كما لا يؤمر بالفسق ، والعقل أن الله لا يأمر بالفحشاء» .

فالمعنى أن الله أمر المترفين بالطاعة ففسقوا وقد قرئ «آمرنا» أي كثرنا ، وقرئ «أمّرنا» من الإمارة أي جعلناهم أمراء وسلاطين .

---

(1) الكشاف : 2/ 442 .

(2) تفسير القاضي البيضاوي : 6/ 18 .

وكل القراءات تلتقي عند هذا المعنى ، فما كثرهم الله ليتعاونوا على الفسق ، وإنما ليتعاونوا على البر والتقوى ، وما جعلهم أمراء وسلاطين ليفسقوا وإنما ليحكموا بين الناس بالعدل .

....

﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾[1] .

يذكر الزمخشري – رحمه الله – أنّ المراد بقرآن الفجر ، وذكر أنه يجوز أن يكون وقرآن الفجر ؛ حثًّا على طول القراءة في صلاة الفجر ، لكونها مكثورًا عليها ؛ ليسمع الناس القرآن ؛ فيكثر الثواب ؛ ولذلك كانت الفجر أطول الصلوات قراءة[2] .

يقصد بذلك – رحمه الله – إلى أن قوله – تعالى – : ﴿ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ ، أي تشهده الملائكة ، أو كثير من الناس ومن أجل ذلك ذكرت هذه الآية هنا في هذا العمل لما أصابنا نحن المسلمين من تكاسل عنها إلّا في رمضان وحده ، فمعظم مساجدنا في صلاة الفجر لا تجد فيها صفا أو صفين ، وقد ثبت أن أثقل صلاة على المنافقين : صلاة الفجر ، وصلاة العشاء ، نعم ، يسهر كثير من المسلمين حول التلفاز ، وحول الشات ، وفي منتديات إلى قبيل الفجر ، وينامون عنده ، والنوم عنده يحلو في العيون ، ولا يتغلب عليه إلّا من أخذ حظه من النوم بالليل ، فارتاح

(1) الإسراء : 78 .

(2) انظر : الكشاف : 2/ 462 .

بدنه ، وهب إلى الصلاة في همة ونشاط ، وقد روى البخاري وأصحاب السنن والفقهاء حديث عائشة - رضي الله عنها - في صلاة النبي - ﷺ - ركعتي سنة الفجر في خفة وسرعة ، إلى درجة أنها استغربت وقالت : هَلْ صلى بأمِّ الكتاب ، ومما قالوه في سبب ذلك أنه - ﷺ خفف في النافلة ليطيل في الفريضة ، ويؤديها في نشاط ، وهي صلاة الفجر ، وتأكيدًا لما قاله جار الله الزمخشري من طول القراءة في ركعتي الفجر أن أحد الصحابة قال : ما حفظت سورة يوسف إلّا من عثمان بن عفان - رضي الله عنه - حيث كان يتلوها في صلاة الفجر .

وقد راجعت حديث البخاري الذي ورد فيه أن النبي - ﷺ - وأصحابه - رضوان الله عليهم - لما ناموا وكانوا على سفر ، أخذهم النوم حتى طلعت الشمس ، وحين عوتب في ذلك بلال - رضي الله عنه - حيث كان مكلفًا - عن رضا - بحراستهم قال : أخذ بنفسي الذي أخذ بأنفسكم . وشعرت بشيء من الفزع إثر قراءتي عبارة «ففزع المسلمون» و«أصابهم من الهم ما أصابهم» .

لأن وقت الفجر قد فاتهم ، وصلوها بعد طلوع الشمس أي قضاء ، بأمر رسول الله - ﷺ - وسبب ذلك أن كثيرًا من المسلمين والمسلمات لا يفوته وقت الفجر مرة في عمره كما حدث في ذلك اليوم الذي لم يتكرر في مبلغ علمي .

وقلت : سبحان الله ، أحس الناس بالوجع في صلاة فاتهم أول وقتها يومًا وكانوا مجهودين على سفر ، فكيف ذهب منا الوجع وقد فاتنا أول الوقت معظم عمرنا .

والناس يحضرون صلاة الفجر في جماعة في رمضان لأنهم حديثو عهد بسحور ، فهم مستيقظون ، ولو كنا ممن قال الله فيهم : ﴿ **كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ** ﴾

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[1] لقمنا دون منبه ودون سحور إلى صلاة قال الله فيها ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾[2] .

وقد قرأ النبي – ﷺ – قول بلال في أذان الفجر خاصة «الصلاة خير من النوم» وكم من خير فات المسلمين ، ومنه البكور الذي قال فيه النبي الكريم «**اللهم بارك لأمتي في بكورها**» .

....

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول الله – عز وجل : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[3] .

يستدل كثير من الناس الذين بينهم وبين العلم مسافات بعيدة بهذه الآية ونحوها على ظاهرة العلاج بالقرآن يقولون : قال الله – تعالى – : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقضية العلاج بالقرآن من أهم القضايا التي شغلت الناس في هذا الزمان ، وقد ادعى أناس أنهم بارعون فيها متخصصون ، والكلام فيها كثير ، وأنا أجتهد في الاختصار لتعم الفائدة ، فأقول : إن القرآن شفاء وعلاج ، ولكن ليس على هذا النحو الذي عرفه هؤلاء من قراءة آياته أو بعض سوره على مريض بمرض عضوي ،

---

(1) الذاريات : 17 ، 18 .

(2) الإسراء : 78 .

(3) الإسراء : 82 .

أو نفسي فإذا به يفيق ويذهب ما به من علل ، أو يتحدث الجان الذي لبسه بلغة لا يفهمها الناس ، وإنما يفهمها هذا الذي وجد رزقه في مثل هذا العمل غير الصحيح ، إنما معناه علاج لقضايا الحياة : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ ﴾[1] .

يقول الزمخشري «كل شيء نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين يزدادون به إيمانا ، ويستصلحون به دينهم فموقعه منهم موقع الشفاء من المرض ، وعن النبي - ﷺ - «**من لم يستشف بالقرآن فلا شفاء له**» ولا يزداد به الكافرون إلّا خسارا ، أي نقصانا لتكذيبهم به ، وكفرهم كقوله - تعالى - : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾[2] .

ماذا يقول الناس في هذا التفسير ؟ إنه لا يرضي - مع الأسف - كثيرًا منهم ، وفي ذلك خطر عظيم ، إن ما ذكره الزمخشري في قوله «فموقعه منهم موقع الشفاء من المرض» يدل على المجاز ، لكنهم يريدون ذلك حقيقة ، فإذا ضممت إلى ذلك قول النبي - ﷺ - : «**تداووا عباد الله**» وتوجيهه صاحبَه سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - حين مرض إلى خبير في الطب هو الحارث بن كلدة ، وكان يومئذ مشركًا عرفت أن هذا الدين دين علم ، بريء من الدجل وصنوفه وأشكاله ، والله - عز وجل - يقول : ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[3] والعلماء في تفسيرها يذكرون أن القرآن شفاء لما في الصدور من الشك والريب ، لا من السعال والربو ، وشتى أمراض الصدر المعروفة .

والقرآن الكريم كتاب هدى ، لا كتاب طب ، قال الله - تعالى - : ﴿ الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[4] .

---

(1) النساء : 176 .

(2) التوبة : 125 .

(3) يونس : 57 .

(4) البقرة : 1 ، 2 .

ومعنى أن القرآن شفاء على النحو الذي ذكره الزمخشري وغيره من المفسرين الأعلام أنه علاج لقضايا الحياة في التعامل بين الناس على أساس من العدل والرحمة والتسامح ، والعفو والصفح : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] .

قال الصديق - رضي الله عنه - وقد نزلت فيه : بلى أحب أن يغفر الله لي . فعفا عن مسطح الذي خاض في الإفك ، ورجع عليه ما كان ينفق عليه ، أليس ذلك شفاء لما كان في صدره منه ؟!

وحين هم عمر - رضي الله عنه - بأن ينال من رجل أساء إليه فذكره شاب اسمه «الحر» كان قد استأذن لهذا المسيء بقوله - تعالى - : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[2] وقال يا أمير المؤمنين : وهذا من الجاهلين ؛ فهدأت ثورة عمر وعفا وصفح ، أليس ذلك شفاء لما كان في نفسه منه . أي علاج كان قادرًا على تهدئة نفس عمر القائدة في هذا الموقف مثل هذا العلاج ؟!

وقد بين الله - تعالى - في كتابه الكريم أحكام شريعته الغراء ومنها المواريث ، والتعامل مع أهل الكتاب ، وما أحل ، وما حرم وهذا عين العلاج بالقرآن ، أما أن يظن أناس أنه بمجرد تلاوته على ذي ورم خصوصًا الخبيث منه - والعياذ بالله - أو على مريض في حاجة إلى إجراء عملية جراحية يوهمه بأنه لا داعي إلى إجرائها فالله الشافي ، وتلاوة القرآن عليه تغنيه فهذا ضلال مبين ، وسعى إلى قتل الناس ولا بأس أن يقرأ المريض القرآن توسلًا إلى الله - تعالى - بكلامه مع أخذ الدواء ، الذي هو أخذ بالأسباب ونحن مأمورون بالأخذ بها ، وما عدا ذلك ؛ فلا يلتفت إليه ، ونسأل الله أن يتوب علينا جميعًا ؛ إنه هو التواب الرحيم .

---

(1) النور : 22 .

(2) الأعراف : 199 .

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ ﴾ .

يقول الله – تعالى – : ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[1] .

توقف معظم الناس على أن معنى هذه الآية في الأزواج ، فالخبيثة للخبيث ، والخبيث للخبيثة ، والطيبة من النساء للطيب من الرجال ، والطيب للطيبة ، وترتب على هذا التوقف أن بعض الناس يظن بنفسه سوءًا لأن زوجة سيئة ، حدثت فتاة مسلمة ، فقالت : نشأت بين والدين رحيمين يطيعان الله ورسوله ، وتخرجت في الجامعة وأنا شابة ملتزمة على النحو الذي أسمعه منك ، أي شكلًا ومعنى وأنا بحمد الله من المصلين ، ما صاحبت زميلًا ، وما أنشأت علاقة مع شاب ، وتزوجت زواجًا تقليديًّا – كما يسمونه – واكتشفت بأن زوجي مدمن خمر ، وتارك للصلاة ، ولا يقول في عمل يعمله غدًا إن شاء الله ، يقول : الغرب لا يقولون إن شاء الله ويعملون ، وهو زير نساء ، وفيه وفيه ، فقلت : إنني امرأة سوء بلا شك لأنني لو كنت طيبة لكان حظي من الزواج زوجًا طيبا فالله يقول : ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ .. وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ .

وكم يعذبني هذا الإحساس ، إلى درجة أني هممت أن أشاركه شرب الخمر بالليل ذات ليلة : إذْ دعاني إلى ذلك ، وقلت : وما المانع ؟ ألست مثله ؟ إنه زوجي ، فإن كان شرب الخمر من الكبائر والمعاصي وهو يتلذذ به ولا يتوب عنه فهو خبيث ، يحب الخمر ، وهي أم الخبائث ، وأنا مثله خبيثة ، أليست الخبيثات للخبيثين ؟! فلم أعذبه وأنكر فعله ما دمت مثله ؟! ولكن الله عصمني ، وما زالت تلك الفكرة تراودني .

(1) النور : 26 .

قلت لها : إن معنى الآية : الخبيثات للخبيثين أي الأعمال الخبيثة ، والأقوال الخبيثة للخبيثين من الناس رجالًا ونساءً ، والطيبات من الأعمال والأقوال للطيبين من الناس رجالًا ونساء ، والطيبون من الناس رجالًا ونساء للطيبات من الأعمال والأقوال ، قال الله – تعالى – : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾[1] .

وقد ذكر ذلك المفسرون ، ومنهم الزمخشري في الكشاف[2] .

والدليل على تفسيره هذا أن امرأة نوح وامرأة لوط في النار ، وهما مثال للذين كفروا ، وكانتا تحت عبدين من عباد الله الصالحين ، وأن امرأة فرعون وهو خبيث ضربها الله مثلًا للذين آمنوا .

قال الله – تعالى – في سورة التحريم : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ * وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾[3] .

فقد يكون الزوجان طيبين ، وقد يكونا خبيثين ، وقد يكون أطيب رجل متزوجًا بأخبث امرأة ، وقد تكون أطيب امرأة متزوجة بأخبث رجل .

---

(1) الإسراء : 84 .

(2) انظر : الكشاف : 3/ 58 .

(3) التحريم : 10 - 12 .

ثم إن الله – عز وجل – يلحق بأهل الجنة أزواجهم وذرياتهم الصالحين : ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾[1] قال : ومن صلح فلو كانوا صالحين بالضرورة ما قال الله ﴿ وَمَن صَلَحَ ﴾ فقوله هذا يدل على أن من آباء أهل الجنة ومن أزواجهم وذرياتهم غير صالحين ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

....

أصحاب اليمين

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ * أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾[2] .

انشغل المسلمون بيمين الجارحة إلى حد كبير ، أعني استعمال اليد اليمنى ، وتقديم اليمنى على اليسرى ، والدخول من جهة اليمين ، والأكل باليمين والشرب باليمين ، وشاع دعاؤهم عند ذلك أيضًا ، حيث يدعون قائلين : ادخل فأنت على اليمين جعلنا الله من أهل اليمين .

وهذه اليمين سنة مباركة بلا شك للقادر عليها ، وقد كان أحد الناس قادرًا عليها لكنه قال للنبي – ﷺ – لا أستطيع ، فدعا عليه قائلًا لا استطعت ، وأجيب ، رواه البخاري . وكان النبي – ﷺ – يحب التيامن ويدعو إليه ، لكن أن يتوقف

(1) الرعد : 23 .

(2) البلد : 11 - 18 .

الأمر عند ذلك دون النظر إلى يمين الدين فتلك مأساة ، إن أصحاب اليمين كما جاء في آيات سورة البلد السابقة هم الذين يقتحمون العقبة ، عقبة النفس الأمارة بالسوء ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1] فهم الذين يفكون الرقاب وهم الذين يطعمون الطعام يتيمًا قريبًا قبل غيره ، ومسكينًا بائسًا في ضنك من العيش وضيق ، وهم الذين يعملون الصالحات ، وهم الذين يتواصون بالصبر ، ويتواصون بالرحمة ، فإن كنت منهم - وأسأل الله لي ولك أن نكون منهم - فنحن إذًا من أصحاب اليمين ، الذين يقال لهم عند الموت : ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾[2] .

ومصيرهم بعد الموت : ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾[3] .

فينبغي ألا تطغى يمين الجارحة على يمين الدين ، فهي شكل ، ويمين الدين معنى ، والجمع بين الشكل والمعنى مطلوب ، والله الهادي إلى سبيل الرشاد .

---

(1) الحشر : 9 .

(2) الواقعة : 91 .

(3) الواقعة : 28 - 34 .

الفصل الثاني

«فاعتبروا يا أولي الأبصار»

﴿ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ * فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1] .

أتأمل هذه الآيات المباركة وأنا أعيش حياة الناس ، وأعرف عن يقين ما عليه الذين يقولون إننا صابرون ، وهم على خور ووهن وضعف ، وذل وانكسار حتى عند قولهم : «إنا صابرون» تسوقها زفرات من صدورهم لونها أسود ، وإن لم تره العين ، لكن يراه القلب الذي يبصر المعاني ، ويرى ما هي عليه من صبغة وهي مع الأسف صبغة سوداء ، لا لون لها إلّا السواد وهي تساق وإلى جوانبها حواش ممقوتة من الأنين ، وأصوات أخرى تشبه العويل ، مع الضعف العام الذي نشأ فيهم نتيجة الإحباط النفسي ، والعزوف الذي يتبعه عن الطعام والشراب .

فترى مَنْ يدعي الصبر في تهاوٍ مخيف ، وضعف ظاهر ، وهو على عكس ما جاء في هذه الآيات الكريمة ، التي تثبت أنّ الصابرين بحق ، لا يضعفون ، ولا يخورون ،

(1) آل عمران : 146 - 148 .

ولا يسكنون في ركن من أركان الحياة ، ولا أقول في ركن من أركان المنزل الذي أضافوا إليه من الكآبة ما جعله غير صالح للسكن ، والمعيشة ، تعدى من أنفسهم ضباب غشي منازلهم ، وأصاب أهليهم ، وجيرانهم ، ومَنْ يعرفونهم كل أخذ حظه بحسب قربه منهم ، أو علاقته بهم ، فمن فقد ولده ، أو فقدت ولدها لبست السواد أبدًا ، وعاشت من بعده حياة هي والعدم سواء ، وقد يكون ولدها شهيدًا مات مصدومًا فجأة .

والشهيد في الجنة ، وقد قالت الرُّبَيِّع بنت النضر - رضي الله عنها - للنبي - ﷺ - أنت تعلم منزلة حارثة (ابنها) مني ، وكان قد استشهد في بدر قالت : فإن كان في الجنة أصبر وأحتسب ، وإلّا أريتك ماذا أفعل ، أي من الولولة والندب والبكاء فقال لها - ﷺ - إنها ليست جنة واحدة ، بل هي جنان ، وإن ابنك لفي الفردوس الأعلى منها ؛ فصبرت واحتسبت ، فهل لها امتداد في نساء المسلمين ؟!

وترى الرجل يبتلى بشيء ، ويخلف الله له بخير منه وما زال يذكر هذا الشيء الذي ابتلي به ، إلى آخر صور الحياة التي بنيت على الصبر ، ولله در القائل :

الصَّبْرُ كَالصَّبْرِ مُرٌّ في مَذَاقَتِـهِ لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ

وقد قال الله - عز وجل - : ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾[1] .

وقال عز وجل لرسوله - ﷺ - : ﴿ **فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ** ﴾[2] .

وقد صبر - ﷺ - على أذى المشركين ، واليهود والمنافقين ، والأعراب ، وغيرهم، وكان خلقه - ﷺ - القرآن ، فما ضعف لما أصابه في سبيل الله وما استكان ،

(1) الزمر : 10 .
(2) الأحقاف : 35 .

بل كان قوي العزيمة ، عظيم الإرادة ، يذكر الصابرين من إخوانه النبيين ، روى البخاري في صحيحه أنه قال - ﷺ - حين أساء أعرابي بين يديه : «**رحم الله أخي موسى ، أوذي بأكثر من هذا وصبر**» .

وقد أوذي الأنبياء والأولياء بأكثر مما أوذينا فَصَبَرُوا حتى أتاهم نصر الله ، وصدق الله العظيم إذْ يقول : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[1] .

....

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[2] .

أبدأ بقول الزمخشري : «العدوان في الدعاء رفع الصوت بالدعاء»[3] .

وفي فتح القدير يقول المناوي : «الدعاء بالتلحين لو كان بين يدي ملوك الأرض لردوه ، فما بالنا برب العالمين وملك الملوك» .

والثابت في جميع السنن أن الصحابة كانوا يلحون في الدعاء ، ولا يسمع بعضهم بعضًا .

وفي الصحيح أن الناس حين ارتفعت أصواتهم بالدعاء قال لهم سيدنا رسول الله - ﷺ - اربعوا على أنفسكم ؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا . كل هذا وغيره يبين مدى ما نحن فيه من عدوان كبير حيث صار دعاؤنا سواء أكنا أفرادًا أم جماعات

(1) الأحزاب : 21 .

(2) الأعراف : 55 .

(3) الكشاف : 2/ 83 .

على نحو من الجهر الذي نعرف ، ومن الألحان التي نعرف وننكر ، وذلك في الصلاة أشنع ؛ حيث يبكي الإمام عن عمد ، ويبكي مَنْ وراءه ، فتتحول الصلاة إلى مناحة ، وتبطل بذلك الصلاة ، أما إذا غلب البكاء المصلي فلا تبطل صلاته .

وظهرت بدعة جديدة ، هي أن رجلًا تخصص في دعاء رمضان ، وجعل لكل سنة دعاءها ، فأنت ترى مريديه يقول بعضهم لبعض : هل عندك دعاء سنة كذا ؟

فأي دعاء في سنة كذا يختلف عن دعاء هذه السنة ؟ وأمر الدعاء سهل لمن وفقه الله - تعالى - وهو كما قال الله - تعالى - في هذه الآية من سورة الأعراف تضرع وخفية والسجع فيه مكروه ، كما قال العلماء ، إذا كان متكلفا والمرء يدعو بما يخطر على باله في الحرم وفي غيره ، فهو أفضل من أن يمسك بكتاب ، ويقرأ منه الأدعية ؛ لأن الدعاء بما يخطر على البال فيه من الإخلاص ما ليس في غيره .

إنما القضية الكبرى في الدعاء أن يكون للداعي سند يسند عليه دعاءه ، أي دعامة يعتمد عليها هذا الدعاء حتى يستطيع الصعود إلى السماء ، ومن تلك الدعامات أن يكون للداعي رصيد عند الله - عز وجل - بدليل قوله - تعالى - : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾[1] .

ومن ذلك أن يتوسل إلى الله بسابق فضله ، قال - تعالى - : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ﴾[2] .

---

(1) الأنبياء : 90 .

(2) يوسف : 6 .

وقال – عز وجل – : ﴿ وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴾[1] ومن ذلك أن يدعو الداعي في مناخ النعم ، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[2] .

وقد قال الله – تعالى – : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ ﴾[3] .

فنهانا ربنا – تعالى – عن تمني ما فضل به بعضنا على بعض ، وفي الوقت نفسه فتح باب سؤاله ، فقال : واسألوا الله من فضله ، وفضل الله عظيم ، لو أعطى كل سائل مسألته ما نقص ذلك من ملكه شيئًا ، ومن ثم رأينا سلفنا الصالح يقولون : نحن لا ننشغل بإجابة الدعاء وإنما ننشغل بالدعاء نفسه ، أي بمثل هذه الدعامات أما الإجابة فيقين ، وليس من فقه الدعاء أن تعتدي فيه برفع الصوت والتباكي وغير ذلك .

(1) مريم : 4 .
(2) آل عمران : 37 ، 38 .
(3) النساء : 32 .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ .

يقول الله – تعالى – : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1] .

ارتباط ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ بذكر العدد ، ﴿ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ و﴿ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ من القضايا المهمة ، التي انصرف عنها كثير من المسلمين ، فتخلفوا حين تقدم غيرهم ؛ وذلك أنهم توهموا أن مسألة العدد تنافي البركة ، والبركة إنما تكون في العدد وقد شاع العدد في الكتاب الكريم فكرًا مهمًا في الكتاب والسنة ، فالقرآن فياض بالعدد ، ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾[3] وقال عز وجل : ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾[4] وقال تبارك اسمه : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾[5] وقال عز من قائل : ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[6] .

(1) التوبة : 36 .

(2) البقرة : 203 .

(3) البقرة : 196 .

(4) البقرة : 184 .

(5) البقرة : 234 .

(6) البقرة : 226 .

وقال عز وعلا : ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾[1] وفي الآية بعدهما يقول عز وجل : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾[2] وفي الحديث الذي جرى مجرى المثل يقول - ﷺ - **«لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»** .

وعماد الدين الصلاة ، والصلاة يدخل فيها العدد إلى حد كبير ، لأنها عدد معين من الركعات ، ولا يصح تجاوز ذلك العدد إلّا في قَصْر الرباعية في السفر ، فإنها تصلى ركعتين فهي تنقل من عدد إلى عدد ، وقد قال الله - تعالى - ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾[3] .

وقد خلق الله - عز وجل - الشمس والقمر ، وقال ﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾[4] .

وقد دعا رجل رسول الله - ﷺ - إلى طعامه ، وسمّى له العدد الذي يأتي معه ، فتبعهم رجل ، فلما وصل الركب إلى بيت الداعي ، قال - ﷺ - له : هذا رجل تبعنا ، فإن شئت دخل وإن شئت رجع ، فقال : بل يدخل يا رسول الله .

قال العلماء : وإنما قال : بل يدخل يا رسول الله لسبب من سببين :

- إما أن يكون قد أعد من الطعام ما يكفيه .

- وإما أنه كان على يقين أن الطعام سوف يكثر ويكفيه ببركة تكثير الطعام بين يديه - ﷺ - .

---

(1) البقرة : 228 .

(2) البقرة : 229 .

(3) البقرة : 189 .

(4) الإسراء : 12 .

ونحن إلى هذه اللحظة لا ندري كم عددنا ، لا يوجد عدد صحيح برغم وجود مؤسسات للإحصاء ، وقد سمعت وسمع غيري وزير المالية السابق يقول في سياق الضريبة العقارية الملعونة نحن نحتاج إلى وقت من حيث حصر البيوت ، ومعرفة أعدادها . وهذا لسان الحكومة الناطق بها يدل على العجز ، والحكومة العاجزة عن معرفة عدد شعبها لا شك تنحط في تخطيطها ، وميزانيتها ؛ إذْ ذلك كله مبنيّ على تلك المعرفة ، إنها فقط حكومة الرد على مَنْ يقول : أين أموالنا ؟! ، بقولها : الزيادة السكانية تبتلع كل مال ، وتحول دون التقدم ، وتعلن رقما هو أقرب إلى مانشيت الصحف منه إلى الواقع والحقيقة .

لا يصح أن يجهل المرء عدد ولده ، ولا عدد سني عمره ، ولا عدد ماله ، فكيف يحصل رزق مجهول ؟! وكيف يعيش هكذا دون أن يتدبر في عام ما لم يتدبره قبل ؟! وكيف يخرج زكاة ماله ؟! والزكاة ركن الإسلام ، وهي مبنية على العدد ، عدد المال وعدد المواشي ، وما تخرجه الأرض ، ونصابها معروف ، يحتاج كذلك إلى عدد .

إن الذين يحبون العدد لا يحبون الدين القيم وإن ادعوا أنهم طالبوا بركة ، وما هذه البركة التي يدّعون إلّا نظام معروف بـ «السبهللة» ، وهذا ليس من الإسلام في شيء .

﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ .

نوع من الإعاقة النفسية ، وهو التردد ، يقول - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[1] .

فرق كبير بين أنْ تتردد ، وأنت في ريب ، انظر كيف جعل الله - عز وجل - الريب ظرفًا للتردد تراه يقول :

أسافر ، لا أسافر .

إنْ سافرت كانت المخاطر .

وإن قعدت كانت البلايا .

ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ؟

وتقول هي :

أتزوج فلانا ، لكن أمه ليست سهلة .

أم أتزوج فلانا ، لكن يبدو أنه بخيل .

ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ؟

أصلي استخارة !

ولو صلت استخارة ما ذلك بناجح ؛ لأنها تود أن ترى منامًا ، أو تشعر بشيء ، ولن ترى منامًا إلّا من قبيل حديث النفس .

ظل مترددًا في الزواج حتى وصل إلى الستين ، وضعف بدنه ، وصار لونه شاحبًا ، وصار يقول : مَنْ ترضى بي لوجه الله - تعالى - تخدمني ، وتمرضني ، ولى

(1) التوبة : 45 .

شبابه الذي كان به يتبختر ، ويزهو ويفخر ، ولا يعجبه العجب ظل مترددًا ، وهو يقول : ما زال الوقت كافيا .

هذه ، لا ، شكلها غير جميل ، هذه جميلة ولكن أخاها يبدو وكأنه خريج سجون ، هذه طماعة ، هذه كذا ، حتى فات الأوان ، ظل يتردد في ريبه يا ليته تردد في يقينه .

لم يجد زاوية خير ينظر من خلالها إلى جمال كان بلا شك - سوف يجده - لكنه نظر إلى جميع الزوايا البائسة ، فلم يفعل شيئًا .

انظر إلى هذا الشاب ، الذي عرض عليه أكثر من عمل ، يقول : هذا لا يناسبني ، هذا راتبه قليل ، هذا كذا حتى ضاعت جميع الفرص ، والله - عز وجل - يقول : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[1] .

إعاقة نفسية حتى عند الرؤساء الذين هم بلا شك تحدثهم أنفسهم باعتزال كراسيهم لكنهم في ريبهم يترددون ، ماذا لو تنازلنا عن عروشنا ؟ كيف نعيش ؟ وأين ؟ وما مصيرنا ؟ وماذا لو بقينا ؟ إن هؤلاء الذين ينادون برحيلنا غير شرعيين ، إنهم أصحاب الفوضى وضد الشرعية ، والنظام ، فنحن الشرعية ، ونحن النظام ونتيجة هذا التردد مزيد من إراقة الدماء ، وانتشار الفساد والمفسدين ، وتخريب البلاد .

إن المتردد مريض يجب علاجه ، وعلاجه يكون بتوجيهه نحو دراسة الأمر الذي هو مقبل عليه ، وقد قال الناس من قديم .

إذا تزاحمت عليك الأعمال فابدأ بالأهم ثم المهم . على المتردد أن يعلم الأوليات ، وأن يكون موضوعيا في الفكر ، مجردًا من النزعات الإنسانية ، والميول ، والأهواء الذاتية .

---

(1) آل عمران : 159 .

وأن يعزم المسألة ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[1] .

وقلَّ مَنْ تجده عازما في هذه الأيام على شيء ، كثر المتوكلون كلامًا ، ولكنهم قلُّوا فعلًا وعملًا ، كما كثر الذاكرون الله – تعالى – والمستغفرون باللسان ، وقلَّ من يذكر الله – تعالى – ويستغفره بالقول والعمل معًا !

....

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2] .

نحن اليوم أشد فقرًا وحاجة إلى معنى هذه الآية حيث تهدد معنى الولاية الخاصة والعامة ، وصار الناس بلا كبير يتكلم ، فيستمعون إليه ، ويأمر بالمعروف فيطاع ، وينهى عن المنكر ، فيستجاب له .

إنّ الولاية بين المؤمنين والمؤمنات تكاد تكون منعدمة ، ألا تسمع قول المرء لأخيه : مالك شأن بي . أية علاقة بيني وبينك ؟! وغير ذلك من الكلمات التي صار الناس يسلمون لها ، وبها ، ويقول ثالث : صحيح ، هذا صحيح ، لست أباه ، ولا أخاه ، ولست نسيبه ولا صهره ولا ابن عمه ، ولا ابن خاله ، يعدون ولاية الدم والقرابة وكأنها الولاية الوحيدة ، وحتى هذه الولاية قد كادت تفقد في زماننا ،

(1) آل عمران : 159 .

(2) التوبة : 71 .

ولا أدل على ذلك من زواج البنت عرفيا دون معرفة أبيها وأمها ، وإخوتها ، تنام الليل بينهم عذراء وهي ثيب بالنهار ، فضلًا عن الحقوق ، وسوء المعاشرة للأقارب والقطيعة بين الأرحام من آيات ذلك وحين يقول الله - عز وجل - : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ فقد أثبت - عز وجل - ولاية المؤمن على المؤمن ، ومن مقتضى تلك الولاية ما ذكر في الآية نفسها ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ .

ونتيجة تلك الولاية بهذا المقتضى في قوله - تعالى - : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ وما أعظمها من نتيجة معنى ذلك أن المؤمنين والمؤمنات يتواصون بالصبر ويتواصون بالحق ، والرحمة ، وطاعة الله ورسوله فإن رأيت تاركًا للصلاة أمرته بالصلاة ، وإن رأيت مهملًا في زكاته أمرته بإخراجها ، وإن رأيت متكاسلًا عن معروف أمرته بالمعروف ، وإن رأيت مرتكبا لمنكر نهيته عن هذا المنكر .

هذا مقتضى الولاية ، وهو كذلك يأمرك بالمعروف وينهاك عن المنكر .

وصدق الله العظيم إذْ يقول : ﴿ وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾[1] .

وقد قال الله - تعالى - : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ * أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾[2] .

---

(1) الصبر : 1 - 3 .

(2) البلد : 17 ، 18 .

وقد عرفت أجيال منا هذه الولاية أيام طلب العلم في الأزهر الشريف ، حين كنا في قريتنا ننادي من هو قريب من سن أبينا بيا أبي فلان ، والتي في مثل سن أمنا بيا أمي فلانة ، فكان جميع الناس آباء لنا وأمهات وإخوة ، كنا نشعر بهذه الولاية دون أن يعبر أحدٌ عنها بالولاية ، أي كنا نعيش مقتضاها .

وقد أثمرت حقا فينا ، فكم من منكر تركناه خوفًا من هؤلاء ، فهم حضور إذا غاب والدنا عن العيون ، وكم من أذى دفعوه عنا ، وكم من نداء لهم فيه خيرنا لبينا ، وهكذا .

وكان الشقي من الصبيان إذا بدا منه تمردٌ على تلك الولاية ، قال له الفلاح القديم : افعل ما شئت ، ولي كلام مع والدك ، عندئذ ينتفض ، ويرتدع ، ويرجوه ألا يذكر من ذلك شيئًا لوالده ؛ لأنه كان على يقين أنه سوف يخبر والده فعلًا ، وأن والده سوف يغضب ويثور ، وسوف يصدقه - يبدو أن الناس كانوا في زمان الصدق ، والصدق نور - نعم كان الوالد يصدق مَنْ أبلغه عن ابنه شيئًا ، وكأنه رآه بعينيه ، ولا طاقة للولد بحساب والده ، وهكذا تستمر تلك الولاية العامة بين المؤمنين عن خير كثير ، ولّى معظمه بسبب فقد الناس إياها اليوم .

﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول الله – تعالى – : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

وفي سورة يوسف يقول – عز وجل – : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2] .

وفي سورة الأنبياء يقول عز من قائل : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] .

هذه الآيات وغيرها من آيات الذكر الحكيم تعالج قضية شائعة بيننا ، منتشرة فينا ، وهي قضية المفارقة بيننا وبين الأنبياء ، ما قابلت أحدًا من الناس يقول بذلك وإنما قابلت من يقول : «هؤلاء كانوا أنبياء ، أما نحن فبشر غير معصومين ، وحالنا حال» .

كأنه يرى أن نصر الله للأنبياء فقط ، وأن الله لا ينجي إلّا رسله وحدهم دون سواهم ، أي دوننا نحن الذين بيننا وبين الأنبياء مسافات طويلة وبعيدة وفي ذلك بعد عن كتاب الله – تعالى – وصريحه الذي يفيد كما ترى في الآيات السابقة أن الله – عز وجل – ينصر أنبياءه ، وينصر الذين آمنوا بل إنه يذكر المؤمنين مع النبيين ، ألا ترى إلى قوله – تعالى – : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾[4] .

(1) يونس : 103 .
(2) يوسف : 22 .
(3) الأنبياء : 88 .
(4) الأعراف : 82 .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾[1] وقوله تبارك اسمه : ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾[2] .

والله – عز وجل – ذو فضل عظيم ، ورحمة واسعة صحيح أن الفرق بيننا وبين الأنبياء عظيم ، لكن فضل الله – تعالى – أعظم . فلم اليأس من رحمة الله ؟!

أذكر في هذا السياق غضبة من غضبات سيدنا رسول الله – ﷺ – كما جاء في صحيح البخاري حين سأل رجلٌ من الصحابة رسول الله – ﷺ – عن حكم الجنب يصبح صائمًا ، أي هل يصح صومه ؟ فبين له – ﷺ – أن صيامه صحيح ، وأكد له ذلك بأنه – عليه الصلاة والسلام – يصبح جنبًا وهو صائم ، أو يصبح صائمًا وهو جنب ، فقال السائل لسنا مثلك يا رسول الله ؛ فقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؛ فغضب – ﷺ – وقال : إني أتقاكم لله ، وأخشاكم لله .

وأذكر قصة ثوبان خادم رسول الله – ﷺ – حين دارت برأسه مسألة رآها مهمة ، وهي تتعلق بحبه لرسول الله – ﷺ – فقد كان كلما ذهب إلى بيته يشتاق لرؤية رسول الله – ﷺ – فيعود إليه ؛ فيراه ، فيشبع هذا الشوق والأمر سهل ؛ إذْ ما عليه إلّا الرجوع إليه ؛ ففكر فيما بعد هذه الحياة الدنيا ، إذا مات ، وأدخله الله – تعالى – الجنة لا شك – فيما رأى – أنه لن يرى رسول الله – ﷺ – حيث إن الجنة منازل ، ولن يكون في منزلته – ﷺ – ويبدو أن هذه الفكرة تملكته ؛ فصارح بها المصطفى المختار – ﷺ – فسكت – ﷺ – ولم يجبه ؛ فأنزل الله – تعالى – قوله : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ

(1) الفتح : 29 .

(2) البقرة : 214 .

وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۞ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾[1] .

وعندئذ أرسل إليه النبي – ﷺ – رجلًا ، وبشّره ، بما أنزل الله – تعالى – فيه .

يقول الشيخ سليمان الجمل – عليه رحمة الله – : «كلب أحب قومًا ، فذكره الله معهم ، فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان ، وكلمة الإسلام ، وحب النبي – ﷺ – ولقد كرمنا بني آدم»[2] وذلك في تفسيره سورة الكهف ، حيث قال الله – تعالى – : ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۞ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾[3] .

وكما ذكرت إن كان البون شاسعًا بيننا وبين الأنبياء فإن فضل الله أعظم ، وقد قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾[4] بعد قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[5] فما بالنا لا نقبل على فضل الله – عز وجل – ولا نسعد به !

---

(1) النساء : 69 ، 70 .

(2) الفتوحات الإلهية : 3/ 13 .

(3) الكهف : 17 ، 18 .

(4) النساء : 70 .

(5) النساء : 69 .

وقد ورد في الصحيح أن المتحابين في الله على منابر من نور يوم القيامة يغبطهم النبيون .

فإن كنا بحق باحثين عن شيء فلبحث في شرط ذلك وهو الإيمان ، كن مؤمنًا حقا ، وكن على يقين أن الله ينجيك كما نجى النبيين ، ويجيب دعاءك كما أجاب دعاء النبيين ، وقد قال الله - عز وجل - في أيوب - عليه السلام - إذْ دعاه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ ﴾[1] .

فما فائدة قوله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[2] ، وقال سبحانه ، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[3] .

وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[4] فكن محسنًا ، تكن رحمة الله قريبًا منك كما كانت قريبًا من النبيين ، واحمد الله على فضله العظيم ، ولا تقل : كانوا أنبياء أما نحن فضائعون ؛ فإن الله يقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾[5] .

(1) الأنبياء :84 .

(2) غافر : 60 .

(3) البقرة : 186 .

(4) الأعراف : 56 .

(5) الكهف : 30 .

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾[1] .

أمر الله - عز وجل - نبيه نوحًا - عليه السلام - أن يصنع السفينة ، وقال : ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ ﴾ عبر بالمضارع لحكاية الحال الماضية ، كما قال الزمخشري[2] وأقول : إن ثمرة حكاية الحال الماضية أن ينظر إليها المخاطب ، وكأنه يراه بعينيه الآن ؛ ليتجدد فيه العزم على المحاكاة ، فيعمل كما يرى نبي الله يعمل ، وهذه الآية مهمة جدًّا في قصة الدعاء الغائب عن أمتنا فقد دعا نوح ربه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾[3] .

وقال : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ * فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾[4] .

وذات الألواح والدسر ، أي السفينة التي صنعها نوح - عليه السلام - بيديه ، حمله الله عليها ، وفضل الله عليه وعلى سائر عباده عظيم فما كانت لتجري على

(1) هود : 37 ، 38 .

(2) انظر الكشاف : 2/ 268 .

(3) الشعراء : 17 ، 20 .

(4) القمر : 10 - 14 .

اليابس ، وما كانت لتسلم في إبحارها في كل هذا الماء إلّا بأمر الله وحفظه ، فأي درس تعلمناه من ذلك ؟!

هل أعددنا قليلًا من السبب ، ودعونا الله – عز وجل – فبارك لنا فيه ، ونجانا به وبها يفتح به من فيوضات رحمته ، كما أنزل الماء من السماء ، وفجر الأرض عيونا وبارك في سفينة أعدها عبده ورسوله ؟!

أم أننا ندعو دون أن نعد شيئًا من سبب ؟! إنني أتذكر في هذا السياق نكتة طريفة ، تقول إن أحد الناس ظل يدعو الله ذرية طيبة ، لمدة عشر سنين وقام ذات ليلة ، فأتاه هاتف في منامه ، وقال له منذ عشر سنين وأنت تسأل الله ذرية طيبة فهلّا تزوجت أولّا !

كان يسأل الله ذرية طيبة وهو غير متزوج فكيف ذلك ؟!

والله – عز وجل – يقول : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1] .

وما أشبه حال كثير من الناس بحال ذلك الذي ظل يدعو الله – تعالى – ويسأله ذرية طيبة ، وهو عزب بلا زواج .

لقد فقد الصحابة – رضوان الله عليهم – الماء ، وأمر النبي – ﷺ – عليا ورجلا معه أن يبحثا عن ماء ، فلقيا امرأة قادمة بماء من جهته فسألاها عن مكانه فقالت إنه بعيد ؛ فعادا بها إليه – ﷺ – فسألاها قليلًا من مائها ، فأعطته ، فوضعه في إناء ، وذكر الله – تعالى – ففاض الماء من بين أصابعه الشريفة وكفى الناس وكانوا فوق الألف وأربعمائة ، وأعطاها منه ما أخذه ، وأمر أصحابه أن يجمعوا لها ، فلما أتت قومها قالت : جئتكم من عند رجل إما أن يكون نبيا وإما أن يكون أسحر الناس .

---

(1) الأنعام : 101 .

وفي حديث جابر يوم الخندق قرأ - رضي الله عنه - الجوع في وجه رسول الله - ﷺ - فذبح له شويهة ضعيفة ، وكان قد عزم على أن يسر إليه بذلك ؛ لأنها لا تكفي عددًا كبيرًا ، لكنه - ﷺ - دعا إلى بيت جابر جميع مَنْ في الخندق حتى قال جابر في نفسه : «إنا لله وإنا إليه راجعون» .

وذهب الناس جميعًا ، وأكلوا عشرة عشرة ببركة تكثير الطعام بين يديه - ﷺ - .

كل ذلك وغيره يشهد بأنه لابد من شيء يعتمد عليه الدعاء ، وتكون عليه البركة ؛ ولذا أقول هذه العبارة ، وأراها طريفة ، وأسأل الله أن ينفع بها ، وهي «لابد من نواة للبركة في الدين» فلا تكون البركة في صفر فضلًا عن السالب قبله ، والدليل على ذلك ما سبق ذكره .

بارك الله في قليل العدد ، وكتب لهم النصر : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1] .

وقال عز جل : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[2] .

وقد جاء في الصحيح أن العبد يتصدق بالصدقة ، فيأخذها الله - عز وجل - بيمينه ، فينميها له كما يربي أحدنا «فلوه» أي مهره الصغير ، فلابد من شيء ولو كلمة طيبة كما جاء في روايات كثيرة .

(1) آل عمران : 123 .

(2) البقرة : 249 .

﴿ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا ﴾ .

يقول الله – تعالى – : ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾[1] .

انظر كيف ضحكت سرورًا كما قال الزمخشري[2] وكانت النتيجة أن جاءتها البشرى .

وهذا درس عظيم غائب عنا ، حيث العبوس والقنوط من رحمة الله ، واليأس من رحمة الله ، ترى مَنْ كان في ابتلاء يسير يظن أنه لن ينجو منه ، ولن ينكشف أبدًا ، إلى درجة أن أحد المبتلين قيل له : إن الله – تعالى – يقول : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[3] فاسأل الله – عز وجل – أن يكشف ما بك من سوء ، فقال هذه الكلمة التي من الصعب أن تنسى : معقولة ؟! نعم ، معقولة ، ومنقولة ، وقد سبق أن ذكرت في الآية الثالثة من سورة هود أن الله – عز وجل – يمتِّع المؤمنين المستغفرين متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى ، ذلك الأجل الذي سماه عنده – عز وجل – وأن من يتقي الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، إننا في مثل هذه المسألة أشد حاجة إلى مراجعة أنفسنا وأحوالنا النفسية بين الشدة والرخاء ، فالمؤمن على يقين أنّ الشدة إذا اشتدت فرجت ، ألا ترى إلى قوله – تعالى – : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[4] .

---

(1) هود : 71 .

(2) انظر : الزمخشري : 2/ 281 .

(3) البقرة : 155 ، 156 .

(4) البقرة : 214 .

مأساتنا أننا إذا دنونا من الفرج طردناه بهذا القنوط واليأس ، وكان علينا أن نعي أن الفرج قريب ، وأنّ الخير آت بإذن الله – تعالى – وأن الفرج الذي ننشده بالباب ، وعلينا أن نفتح له الباب ، برفق ، ونحن سعداء ، ﴿ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا ﴾ والبشرى تكون لمن يضحك ، وقد قال الشهاب الخفاجي – رحمه الله – في عناية القاضي ، وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي أن للنعمة لسانا تخاطب به ربها قائلة : اللهم أبقني في دار فلان ، فإنه كلما رآني فرح بي وشكرك عليّ ، وتقول عند آخر : اللهم أخرجني من بيت فلان ، فإنه كلما رآني لم يفرح بي ، ولم يشكرك عليّ .

وقد جاء في الحديث الصحيح قول النبي – ﷺ – ما بال المؤمن أمره كله خير ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له والصبر الذي في كتاب الله غير الصبر الذي عرفه الناس ، فهو صبر الأقوياء ، الذين يحبسون أنفسهم عن الشكوى لغير الله – تعالى – فالذي قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ ﴾[1] وهو يعقوب – عليه السلام – هو الذي قال : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[2] .

والله حَسْبُ مَنْ شكا إليه ، فليس في حاجة إلى أن يشكو إلى مخلوق . لا يملك له ضرًّا ولا نفعًا إلّا على سبيل التقاضي لأخذ حقه ببينة ؛ فإن القضاء مشروع .

نعم على المؤمن أن يستبشر بفرج الله الذي هو على يقين من مجيئه إليه ، وهو منه قريب ، قال الله – تعالى – : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3] .

(1) يوسف : 18 .

(2) يوسف : 86 .

(3) الأعراف : 56 .

﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾[1] .

هكذا قال شعيب - عليه السلام - لقومه الذين كانوا ينتقصون المكيال والميزان، أي الكيل والموزون ، ويبخسون الناس أشياءهم ، أمرهم - عليه السلام - بالوفاء في المكيال والميزان ، ونهاهم عن بخس الناس أشياءهم ، وقال ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي رزقه الحلال خير لكم .

وقد يكون المراد بقية الله لكم في الآخرة على ما ذكره الزمخشري[2] ، أي ﴿ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ ﴾[3] .

ونحن في حاجة إلى التفسيرين ، أعني نحن في حاجة إلى الجمع بينهما ، والإفادة من هذه الآية الكريمة ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ فالرزق الحلال خير ، والبقاقيات الصالحات في الآخرة خير كذلك ، ولا مانع من اجتماعهما ، فإن الذي يزن بالقسط ، ويكيل به يحظى بالحلال الطيب ، وهو خير له ، وفي الوقت نفسه يكون قد أطاع الله - عز وجل - فيبقى له أجره وثوابه عند مولاه يوم لا ينفع مال ولا بنون .

وقد ظهر جليًا شيوع هذه العبارة على ألسنة التجار والباعة الذين يقولونها صراحة لا ضمنا : إننا لو مشينا على الصراط المستقيم لما أكلنا ، وما شربنا ، وما عشنا ، ويتعللون بنقص المكيال والميزان بأن وراءهم إيجار محال ، وكهرباء ، ومياه وأجرة

---

(1) هود : 85 ، 86 .

(2) انظر : الكشاف : 2/ 286 .

(3) الكهف : 46 .

عمال ، وضرائب ، فمن أين نسدد ذلك كله ومنهم من يلصقها بالحكومة والنظام ، فيقول : إن الحكومة هي السبب ، ومنهم من يقول إن تجار الجملة هم السبب ، فالبضاعة تأتينا ناقصة ، والميزان الكبير الذي يزنون لنا به خلاف الميزان الصغير ، علل ، وأسباب لا تسوغ لهم التطفيف ، وهم في النهاية يربحون ، لكنهم يزعمون أن هذا الربح قليل ، لا يكفي ، ويسير لا يسد حاجة وراءهم مما ذكروه .

ولو علموا أنه بقية الله ، فانظر ماذا تكون البقية ، إنها بقية الله - عز وجل - لا بقية أحد من الناس يشوبها العوار والنقص ، وبقية الله خير كما قال ، ومن زعم أنها ليست بخير فقد افترى على الله الكذب ، وكان له ما أراد ؛ لقوله - تعالى - في الحديث القدسي : «**أنا عند ظن عبدي بي ، فإن ظن بي خيرًا فهو خير**» ، فالمسألة مبنية على الاعتقاد واليقين .

وقد يقول بعض الناس : إن هذه البقية قليلة ولكنها مباركة ، وقد يكون هذا القول صائبًا ، فتش عن الخير في بقية الله - عز وجل - تجده بإذنه - تعالى - كما يقول هؤلاء ، وفي أحاديث كثيرة نجد قول النبي - ﷺ - : «من استعف أعفه الله» و«من استغنى أغناه الله» .

وقد قال الله - تعالى - : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] .

صحيح أن الكثرة قد تعجب ؛ لأنها مما تزيغ إليه الأعين ، ويسبي النفوس الضعيفة ، لكن ذا اللب لا يسوّي بين كثير خبيث ، وبين قليل طيب ، فالقليل الطيب يربو عنده ، ويزيد ، ويعلو ، ويرتفع ، وإليه يسعى .

---

(1) المائدة : 100 .

وهو – والله – وإن كان قليلًا في مرأى العين غالب ، وكافٍ ، والرزق في كتاب الله – تعالى – لم يأت موصوفًا بالكثرة ، وإنما جاء موصوفًا بالحسن ﴿ وَمَن رَّزَقْنَهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾[1] ، ﴿ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾[2] وجاء موصوفًا بالكرم ﴿ رِزْقًا كَرِيمًا ﴾[3] وقال في الوقت نفسه : ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً ﴾[4] .

فالمهم أن يكون الرزق حسنًا ، والحسن آية جمال ، والعبرة بالنتائج ، ألا ترى إلى قوله – تعالى – : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[5] .

وكما غلبت الفئة القليلة الفئة الكثيرة بإذن الله ، كذلك يغلب الرزق الحلال المال الكثير الخبيث ، فيؤدي رسالته عند من قنع به ، فإذا به يأكل اللقمة هنيئًا مريئًا وإذا به يستمتع بها ، روي أنه – ﷺ – كان يقول عند فراغه من قضاء الحاجة :

«الحمد لله الذي أذاقني حلاوته ، وأبقى فيّ قوته ، وخلصني من أذاه» .

وقد ترى ذا المال الكثير في وثير الفراش ولا ينام قرير العين ، ويقعد أمام ما يسمى بالبوفيه المفتوح ويأكل من كل صنف ، ولا يشبع ، أو يشبع لكن يشعر بأنه وضع حجارة في بطنه ، لا لحمًا طريًا ، ولا غيره من طيب الطعام ، وقد يشرب

---

(1) النحل : 75 .
(2) الطلاق : 11 .
(3) الأحزاب : 31 .
(4) الفتح : 20 .
(5) آل عمران : 13 .

المياه المعدنية ولا يشعر بريٍّ يشعر به من شرب من (الحنفيّة) ، أو من الترعة ، فالحلال سحره وسره ، وآياته ، التي لا يعرفها إلّا من ذاقه ، كما قيل :

لَا يَعْرِفُ الشَّوْقَ إِلَّا مَنْ يُكَابِدُهُ

وأنا لا أحب تلك المقارنة بين القليل ذي المنافع الشتى وبين الكثير الخبيث ؛ لأني أومن أن الإسلام ليس ضد الكثرة ، بدليل قوله - تعالى - : ﴿ **وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا** ﴾[1] وقوله - ﷺ - في دعائه : «**اللهم زدنا ولا تنقصنا**» .

....

﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ ﴾ .

استوقفني هذا التركيب الإضافي ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ ﴾ وأنا أقرأ هذه الآية من سورة هود على لسان شعيب - عليه السلام - حين قال لقومه : ﴿ **بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ** ﴾[2] .

لقد شاع في قوم شعيب نقص المكيال والميزان ، فنهاهم عن ذلك : ﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** ﴾[3] .

---

(1) الفتح : 19 .

(2) هود : 86 .

(3) هود : 84 ، 85 .

وسر التوقف محاولة النظر في التعبير بـ ﴿ بَقِيَّت ﴾ ، أن النظر عندها وحدها يفيد القلة بلا شك ، وذلك عند الإطلاق ، لكن إذا أضيفت إلى ذي الجلال - سبحانه وتعالى - أفادت كثرة بلا حد ؛ حيث إنها لم تعد بقية ، وإنما هي بقية الله ، وكذلك إذا قلت : فلان له على فلان ألف ، أخذ منها مائة ، فالبقية تسعمائة ، وهي أكثر مما أخذ ، فالسياق والإضافة يحددان معنى البقية .

والناس يعرفون ذلك ، ألست تسمع الزوجة التي تعاني سوء معاملة زوجها ، حين تقول له : اسمع ، أنا لو عشت على بقايا طعام أخي شبعت وعشت حياة كريمة ، أفضل من تلك الحياة التي أعيشها في كنفك .

ومعنى هذا أن أخاها رجل ميسور الحال بلا شك بدليل أن بقية طعامه تكفي مثلها وزيادة ، فما بالك بالأصل !

وقد تكون البقية أكثر من الحق عند الكرام بحق أو المرائين ، فقد يشرب غني شيئًا بعشرة جنيهات ويعطي الساقي مائة ، ويترك له بقيتها .

وقد أوثر هذا التعبير في تلك الآية ، مراعاة للسياق ، وكأنه ضرب من المشاكلة المعنوية ؛ لأن الذي يبخس الناس أشياءهم ، أو يظلمهم في المكيال والميزان يستقي بذلك لنفسه ما يظنه ربحًا ، وهو ليس بربح ، بل خسارة عليه في الدنيا والآخرة ، كما قال الرازي[1] .

أما إذا أعطى الناس حقهم ، ووفّى ، كان له بلا شك بقية ربح حلال ، قد تكون قليلة في العدد ؛ لكنها كثيرة بالنظر إلى البركة ؛ لأنها ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ ﴾ وما أعظم تلك البقية ؛ لأنها بقية الله العظيم ، جل جلاله الذي يعطي من لدنه أجرًا عظيمًا .

(1) انظر : تفسير الرازي : 8 / 592 .

إن هذه المسألة من مسائل اليقين ، فمتى اعتقد المسلم أن بقية الله خير له ، وإن قلت في أعين الناظرين رأى ثمرتها ، ويكفيه أنه في طاعة مَنْ أعطاها ، والملك بيده ، والبركة من عنده وقد قال – تعالى – : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] .

نعم إن الكثرة موضع إعجاب ، لكن الإعجاب لحظة ، ويبقى من بعده التفكر ، فهو يطرح في النفايات ، ويلقى من وراء الظهر ويقصى بعيدًا إذا كان من ورائه النار ، ويكون النظر إلى القليل الحلال أولى .

ثم انظر إلى عاقبة الذين يحصدون الكثير من الحرام ، قد يحصدون شوكه وعلله في الحياة الدنيا ، فإذا بهم ينفقونه في معالجة الأمراض والأزمات ، أو أنهم لا يشعرون بلذة طعامه وشرابه ، وقد يتراكم فوق رءوسهم نارًا يوم القيامة ؛ فقد قال ربنا – عز وجل – : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[2] .

فمن غل أي أخذ ما ليس من حقه جاءه يوم القيامة نارًا ولو كان حبة ، وقد يكون بعيرًا أو شاة ، كذلك يأتي بعيرًا من نار ، وشاة من نار ، كما جاء في الحديث الشريف الصحيح عن المعصوم سيدنا رسول الله – ﷺ – فهنيئًا لمن أبصر ، ورضي بالحلال ، وتعسًا وشقاء لمن غره الكسب الحرام ، فرآه حسنًا ، وثروة عظيمة ، وهو لا يدري أنه في جهنم وإلى جهنم ، رزقنا الله الحلال ، وجنبنا الحرام ، وما يؤدي إليه .

---

(1) المائدة : 100 .

(2) آل عمران : 161 .

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(1) .

السبب الذي جعلني أتعرض لهذه الآية الكريمة وأشرف بالكتابة فيها في هذا العمل ، الذي أسأل الله أن ينفع به الناس ، أنه شاع على ألسنة كثير منهم «اللهم أخرجنا منها (من الدنيا) على خير» بمناسبة ، وبغير مناسبة ، ما رأيت إنسانًا يمر بمشكلة يسيرة إلّا وهو يقول : ربنا يخرجنا منها على خير ألا يرى هؤلاء ماذا قال يوسف - عليه السلام - في هذه الآية ؟ ما قال توفني مسلمًا إلّا بعد أن آتاه الله الملك ، وعلمه من تأويل الأحاديث ؛ ولذا طاب لي أن أرد على بعض هؤلاء الذين يقولون تلك العبارة ، فلما قال : أسأل الله يا دكتور أن يخرجنا منها على خير ؛ فقلت له : بل أسأل الله - تعالى - أن يدخلنا فيها أولًا ، ثم يخرجنا منها على خير ، فما قال يوسف - عليه السلام - ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ إلّا بعد أنْ آتاه الله الملك وعلمه من تأويل الأحاديث .

ولنا أن نذكر في هذا السياق أن الله - عز وجل - قال لرسوله - ﷺ - : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾(2) .

---

(1) يوسف : 101 .

(2) سورة العصر .

وقد فهم ابن عباس - رضي الله عنهما - أن هذه السورة الكريمة نعي رسول الله - ﷺ - ، نعى الله - تعالى - إليه نفسه ، وبهذا التفسير احتج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على الذين رأوا أن ابن عباس صغير ، فكيف يحضر مجلس عمر ، وفيه الكبار ، فسأل عمر الكبار عنها ففسروها على ظاهر ألفاظها أنه إذا جاء النصر والفتح وجب الاستغفار والتسبيح ، وسأل عنها ابن عباس فذكر ما قلته ؛ فقال عمر : وأنا لا أفهم منها إلّا الذي تفهم .

ولنا أن نتعلم من ذلك الدرس الكبير أنه - ﷺ - ما قال : بل الرفيق الأعلى وما نعى الله - تعالى - إليه نفسه إلّا بعد أن جاء نصر الله والفتح ، وقال الله - عز وجل - : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[1] .

وقد ورد في الصحيح عن النبي - ﷺ - أنه نهى عن تمني الموت لضر أصاب المرء ، فالحياة نعمة ، والجهاد فيها واجب ، والمرء قد يكون على حسن عمل ، فيزيده طول العمر حسنًا ، وقد يكون على سوء والعمر فرصة له كي يتوب .

ثم قال النبي - ﷺ - : «**فَإِنْ كَانَ لَابُدَّ قَائِلًا فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحياةُ خَيرًا لي ، وتَوَفَّني ما كَانَتِ الوَفاةُ خَيرًا لي**» .

أما أن يكون على لسان المرء دائمًا : اللهم أخرجنا منها على خير ، فهذا إذا أتم رسالته فيها ، وليست رسالة المرء في أن يرى أولاده حتى يزوجهم ، ثم يقبل يديه ، ثم يقول : اللهم أخرجني منها على خير ، فأين رسالته في خدمة دينه وأمته ، وقد يكون قادرًا على فعل الكثير من أجل دينه وأمته .

(1) المائدة : 3 .

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾[1] .

تعالج هذه الآية مشكلة وقضية من مشكلات النفس البشرية ، وهي انشغال المرء بأمر مَنْ ظلمه من الناس ، يود أن يرى فيه يومًا كما يقولون .

ترى الإنسان المظلوم يقول ما نعرفه جميعًا بالحرف الواحد : «أنا لن يهدأ لي بال ، ولن تقر لي عين ، ولن تطيب نفسي حتى أرى في ذلك الظالم يومًا ، يا رب ، أرني فيه يومًا ، يا رب أراه وقد دهسته سيارة أو داسه قطار ، أو جاءني خبره» .

فهلا قرأنا هذه الآية وغيرها من الكتاب العزيز ؛ لنعرف أن الله - تعالى - عليه وحده حساب الظالمين إنْ شاء أرانا بعض آياته فيهم ، وإن شاء فعل ذلك بهم بعد وفاتنا ، وعلينا ألا ننشغل بهذه المسألة ، فكفانا أن الله - تعالى - ليس بغافل عما يعمل الظالمون قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[2] .

أما وقت انتقام الله - تعالى - منهم فمرده إليه ، لقد قال موسى - عليه السلام - : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3] .

---

(1) الرعد : 40 .

(2) إبراهيم : 42 .

(3) يونس : 88 ، 89 .

قال البيضاوي[1] : «فاثبتا على ما أنتما (موسى وهارون) عليه من الدعوة ، وإلزام الحجة ، ولا تستعجلا ؛ فإن ما طلبتما كائن ، ولكن في وقته ، روي أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة» .

وقال الشهاب الخفاجي في حاشية ذلك : يقتضي ألَّا يستعجلا بالإجابة .

والإنسان عجول بطبعه ، لكن الإيمان يصلح فيه كثيرًا من الطباع الفاسدة ، ومنها الاستعجال وغيره ، ألا ترى إلى قوله – تعالى – : ﴿ **إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ** ﴾[2] فقد استثنى المصلين من جنسهم ؛ لأنهم من الناس ، لكن الصلاة أخرجتهم من طباع هذا الجنس ، فهم لا يجزعون ، عند شر ، ولا يمنعون عند خير .

أناس كثيرون مصابون بهذا المرض النفسي القاتل وهو الاستعجال ، يدعو المرء دعاء خير ، ويود أن تواتيه الإجابة في الحال ، ويدعو دعاء شر على من ظلمه ، ويود أن تنزل عليه صاعقة من السماء فورًا ، إثر دعائه عليه كأنه يرى في ذلك شفاء لنفسه ، وما يشعر به من سواد بسبب الظلم ، والله يعلم إن تسليمه الأمر لله خير علاج له .

فليستقم على أنه فوض الأمر لله – عز وجل – ولينظر ما وراءه من أعمال ، يؤديها على ثبات ، وهدوء نفس واستقرار حال ، وهو على يقين أن الله – تعالى – يملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته ، هكذا قال – ﷺ – ثم قرأ قوله – عز من قائل – : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾[3] .

---

(1) تفسير البيضاوي : 5/ 56 .

(2) المعارج : 19 - 20 .

(3) هود : 102 .

لكن متى ذلك ؟ الله وحده الذي يعلم ، وكل شيء عنده بمقدار ، وهو - سبحانه وتعالى - الحكيم ، الذي يضع الشيء موضعه .

وقد يتوب - سبحانه وتعالى - على هذا الظالم فيرد عليك حقك ، أو لا يرد ، ويعطيك الله - تعالى - أفضل مما لك عنده .

وقد قال - تعالى - : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[1] .

وقد نزلت هذه الآية بسبب أنه - ﷺ - كان يدعو على بعض المشركين بأسمائهم ، فلما نزلت لم يدع عليهم .

فكن مطمئنًا إلى عدل الله - عز وجل - وإلى حكمته البالغة ، وإلى أنه كما قال : ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾[2] وقال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[3] وامض فيما أمرك الله ، ومن دعاء التابعين «اللهم لا تشغلني بما ضمنته لي ، واشغلني بما كلفتني به» .

وقد ضمن الله لنا أنه ينتقم من المجرمين ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾[4] وضمن لنا إجابة دعوة المظلوم وفي الحديث : «اتقوا دعوة المظلوم» وفي الحديث القدسي يقول لها رب العزة : «بِعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ» ، فلننشغل بما كلفنا الله - تعالى - به من طاعته ونحن على يقين أن الله حسبنا ونعم الوكيل .

---

(1) آل عمران : 128 .

(2) طه : 52 .

(3) مريم : 64 .

(4) السجدة : 22 .

﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

وهذه الآية الكريمة مما يؤكد أن ثواب الدنيا قائم ثابت وأن حياة المؤمن حياة طيبة ذكرًا كان أو أنثى ، وقد يتمثل طيب الحياة في اليسر ، وكما قال الزمخشري[2] وهذا لا كلام فيه ، وقد يتمثل في مقابله «العسر» لأن مع المؤمنين الرضا والقناعة بخلاف الفاجر إن كان في ضيق فحياته ليست طيبة ؛ لأن الضيق واضح ولا رضا معه ، وإن كان موسرًا شغله الحرص عن الاستمتاع بما عنده ، هكذا قال العلماء ، وما قالوه حق ، فنعم المال الصالح للعبد الصالح كما جاء في الحديث الصحيح ، يتقي فيه ربه ، ويصل به رحمه ، وينفقه في وجوه الخير ، فيبارك الله له فيه ، حيث يخرج زكاته المكتوبة ، والزكاة طهارة ونماء للمال ، ويتقرب منه بصدقة تطوع تزيده قربا من الله مولاه **«وَمَا زَالَ العَبْدُ يَتقرَّبُ إِلَيّ بالنَّوافِلِ حَتَّى أُحبَّه ، فَإِذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَعَيْنَهُ الَّتي يُبْصِرُ بِهَا ، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بهَا ، وَيَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بهَا ، ولَئِنْ سَأَلَني لأُعْطِينَّه ، ولئِنِ اسْتَغْفَرَني لأَغْفِرَنَّ لَهُ»** .

فأيُّ طيب بعد هذا ، وأيُّ سعادة ينتظر العاقل بعد سعادته بأن يكون له من الله نور في سمعه وبصره ورجله ويده وفي دعائه المستجاب .

حتى الذي في ضيق من العيش ، يضفي عليه رضاه سعة لا يرى معها ضيقًا ، ولا بها بؤسًا ، بل إنه يرى القليل كثيرًا ، والمالح حلوًا .

(1) النحل : 97 .

(2) انظر : الكشاف : 2/ 427 .

وأذكر في هذا السياق قصة سيدنا عثمان بن مظعون أبي السائب - رضي الله عنه - حيث أجاره الوليد ففكر في التخلص من جواره ، وذلك أنه - رضي الله عنه - هاجر إلى الحبشة ، وأشيع هنالك أن المشركين دخلوا في دين الله ، فعاد ، ودخل مكة على النظام المتبع وقتها في جوار عين من أعيانها وعلم من أعلامها ، وهو الوليد لكنه - رضي الله عنه - فكر في نفسه ، وقال : كيف أكون في جوار كافر ، ولا ألاقي ما يلاقي إخواني من التعذيب ، وتخلص من جوار الوليد بعد أن شكره ، وجلس في البيت الحرام مع جماعة من الناس كانوا يستمعون إلى إنشاد لبيد ، فلما قال :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

قال عثمان : صدقت .

فلما قال لبيد :

وكل نعيم لا محالة زائل

قال عثمان : كذبت : فإن نعيم الجنة لا يزول .

فغضب الشاعر ، وقال للقوم من حوله : متى أهين جليسكم ؟! فهب رجل من الجالسين ولطم عثمان على عينه فاخضرت ؛ ورأى الوليد ذلك ، فجاء إليه ، وقال :

يا ابن أخي ، أما كان جواري خيرًا لك من هذا ؟

فقال عثمان :

لا تشمت ؛ فإن عيني الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها في الله .

فانظر حال الرضا بالإصابة في الله ، كيف عبر عنها بأن الصحيحة تشتاق إلى ما أصاب أختها في الله ، وكذلك حال من ضيق عليه في الرزق إذا لم يكن هو سببًا في ذلك الضيق بتواكله وكسله ونومه .

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[1] .

كثير من الناس في زماننا قد أثر فيهم الوهم ، واتبعوا خطوات الشيطان ، فانشغلوا بمسألة الجن ، واللبس ، والأعمال ، وأنشئت من أجل ذلك قنوات فضائية ، منها قناة تعمل على مدار الساعة في الرقية الشرعية من الجن ، فأنت ترى رجلًا يتلو آيات بعينها من سورة البقرة ، والصافات وغيرها ، يكررها آناء الليل وأطراف النهار ، وكان الحق يقتضي أن تستغل مثل هذه القناة في خدمة كتاب الله وشرح صحيح الدين ، وتنوير المسلمين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ؛ وذلك لأن الأمر أهون من ذلك .

وقد قال ربنا في آيات متعددة ، منها تلك الآيات من سورة النحل : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾[2] أي قل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، والرجل يقرب من امرأته فيقول بسم الله الرحمن الرحيم اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني ، فلا يمس ولده شيطان إن رزقه الله ولدًا كما جاء في الحديث وقد قالت امرأة عمران : ﴿ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[3] فما مس الشيطان مريم ، ولا ابنها ، كما جاء في الحديث الصحيح أيضًا ، فماذا قالت أم مريم التي نذرتها لله ، فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنًا

(1) النحل : 98 - 100 .
(2) الأعراف : 200 .
(3) آل عمران : 36 .

وجنبها وابنها الشيطان ، قالت : ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ أَوَ يحتاج هذا الأمر إلى قناة فضائية ؟!!

ثم انظر إلى قوله – تعالى – : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[1] .

إنَّ هذه الآية حكم وبيان من الله – تعالى – يفيد بأنَّ الشيطان وقبيله ليس لهم سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ؛ فليراجع نفسه وإيمانه كل من قال إن الشيطان متسلط عليّ ، وإن الشيطان يغلبني ، وأشعر بأنني ملبوس ، وبداخلي الشيطان ، ولله در الإمام الشافعي – يرحمه الله – حيث قال : لا أقبل شهادة من يقول إنني أرى الجن ؛ لفسوقه ، حيث قال الله – تعالى – : ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾[2] وإجماع علماء الأمة على أن الشيطان لا يملك إلّا الوسوسة ، وقد قال العلماء في معناها اللغوي «إنها صوت الحليّ الذي لا يكاد يسمع» . فهي ضعيفة .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[3] وفي تلك الوسوسة يقول الله – تعالى – : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾[4] .

---

(1) الأعراف : 27 .

(2) النحل : 99 .

(3) النساء : 76 .

(4) سورة : الناس .

وشيطان الإنس عند العلماء والعقلاء أشد خطرًا من شيطان الجن ؛ لأن شيطان الجن كما قال الله - عز وجل - خناس ، أي : يهرب عند ذكر الله - تعالى - أما شيطان الإنس فقد يذكر معك الله - عز وجل - وهو عازم على أن يضرك ، فإن قلت «أعوذ بالله» أكمل لك «من الشيطان الرجيم» وهو من الشياطين ، أما إذا قلت : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فرَّ شيطان أي شيطان الجن عند سماعها .

ويبدو أن الناس معظمهم لا يحب السهل من الأعمال والأقوال ، فهو يريد صناعة في هذا ، يضحك عليه الدجالون الذين يسألونه أن يأتي بالعجائب والغرائب من الديك الرومي ، والدجاجة الأرملة ، والزعفران ، والمسك ، ودم الفيل ، والغزال ، ولبن العصفور ، وأن يخلط هذا كله في ليلة قمرية وعلى يد غلام أو صبية دون سن البلوغ إلى آخر هذه المتاهات .

ثم إذا قال له ذلك ومثله معه أتى به وحققه وهو سعيد ، وإذا قيل له : قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فإن ذلك يذهب عنك الشيطان قال لك : فقط ؟ لأنه تعود على الدجل والدجالين ، والخلطات العجيبة ، والأمر كما ذكرت سهل عند مَنْ وفقه الله - تعالى - لفهم دينه ، واستقبال فيوضات رحمته ، ورحمة الله قريب من المحسنين ، كما قال الله ربنا رب العالمين .

نعم ، ليراجع المرء إيمانه وتوكله حتى يتبين له أن الشيطان ليس له سلطان عليه .

إنما سلطانه - كما قال ربنا - على الذين يتولونه ، كما قال - تعالى - في سورة آل عمران : ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[1] فالشيطان يخوف أولياءه ، والشيطان له سلطان على أوليائه ، وكما قال

(1) آل عمران : 175 .

الله - تعالى - : ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾[1] والذين استحوذ عليهم الشيطان هم جنده وحزبه ، وهؤلاء هم الخاسرون .

فأولياء الله - تعالى - لا يخافون الشيطان ، ولا يهابونه ، ولا يقيمون له مثل هذا الوزن الذين هوِسَ به كثير من الناس في زماننا ، إنهم يتوكلون على الله دون سواه ، وهم بحبله معتصمون ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[2] .

والعجيب أنك تسمع بعض هؤلاء الذين يحدثونك عن الجن والعفاريت ، والشياطين يقصون عليك من آيات الإيمان والتقوى ما يجعلك تقول : سبحان الله ، هذه آيات الإيمان والتقوى ، والقوم لابد أنَّهُمْ من المتقين ، فكيف تتسلط عليهم الشياطين ! وأنت بلا شك وهم في حاجة إلى مراجعة ، فقد يكون ما تسمع من آيات الإيمان والتقوى مجرد شكل ، كالذي يصلي لا تفوته مكتوبة ، وهو غير متزين بروح الصلاة ، ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[3] وقد يصوم ورب صائم ليس له من صيامه إلّا الجوع والعطش ، وقد يحج فيرفث ويفسق ويجادل ، ولا رفث ولا فسوق ولا جدال وقد يكون والعياذ بالله من الذين قالوا لبيك اللهم لبيك ، فنودوا : لا لبيك ولا سعديك ونحن في حاجة إلى أن نكون مؤمنين حقا ، حتى لا يكون للشيطان علينا سلطان .

(1) المجادلة : 19 .
(2) آل عمران : 103 .
(3) العنكبوت : 45 .

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾[1] .

قال الزمخشري[2] : «اشترط ثلاث شرائط في كون السعي مشكورًا : إرادة الآخرة بأن يعقد بها همه ، ويتجافى عن دار الغرور ، والسعي فيها كلف من الفعل والترك ، «والإيمان الصحيح الثابت» .

وعن بعض المتقدمين : «مَنْ لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله ، إيمان ثابت ، ونية صادقة ، وعمل مصيب» .

هذا معنى الآية الكريمة ، وكثير منا فهم معناها ، ومعنى غيرها على إرادة الآخرة بدون شرائط ، ولا شروط ، ولا قيود ، قضية مهمة خطيرة تغشى حياتنا كلها هي قضية الرغبة الكلامية دون إثبات صدق فيها .

لدينا من يفهم الحديث على ظاهره ، وهو ما رواه البخاري من قول النبي - ﷺ - لسائله عن الساعة ماذا أعددت لها ؟

فقال : ما أعددت لها كثير صلاة وزكاة ، ولكني أحب الله ورسوله ، فقال - ﷺ - أنت مع من أحببت .

طار الناس فرحًا بهذا الحديث حين سمعوه ، ولكنهم فهموه على أنه لابد من العمل ، للوصول إلى مكانة من يحبون من باب التشديد لا من باب الكمال ، والمطابقة الكاملة لما يعملون .

(1) الإسراء : 19 .

(2) الكشاف : 2/ 443 .

وطار الناس فرحًا بهذا الحديث في زماننا حين سمعوه ولكن على النحو الذي فهموه خطأ ، وهو أن الحب وحده دون عمل يؤيده ، وبرهان يثبته هو الكفيل الذي يضمن لهم الوصول إلى الدرجات العلا .

فنحن نريد حبا أو نعيش حبا بالكلام ، يقول العاجز الكسول الخامل لفتاة يحبها : كيف تقبلين أن تتزوجي غيري ، وأنا أحبك ؟!

ليس لديه شقة ، ولا وظيفة ، ولا مال ، ويريد أن يعيش حياة زوجية ، في بيت أبيها أو يضيق على أمه وعلى حبيبته بأن يسكن في غرفة في شقتها ، وأن تعطيه حبيبته كل ما تملك من قرط في أذنيها ، وأسورة في معصمها ، وخاتم في إصبعها ، وأن تعمل هي ويقعد هو في البيت ينتظرها وهي قادمة بالزاد والدخان ، وكفاها شرفًا وتيهًا أنه يحبها ، عجيب ، فهل هذا حب ، أم أنه تخبط عقل تحت وطأة وهم الحب ؟!

كذلك الحال عند الموظفين ، هناك من يريد أرباحًا وزيادة في الراتب دون أن يقدم عملًا ، وكأنه يقول للمؤسسة التي يعمل فيها : كفاك شرفا أنني مقيد في سجل موظفيك ، والدليل على ذلك أنك تجد الشاب يعرف كل شيء عن حقوقه ، راتبه ، بدلاته ، حوافزه ، علاجه ، إجازاته ، وغير ذلك ، ولا يعرف نصف ذلك من حقوق عمله عليه . مأساة بكل المقاييس ، ولابد لها من علاج ؛ لأن الحياة إذا كانت مجرد كلام لم تكن حياة ، وإنما صارت هواء وفراغًا .

ويكفي أن العلماء يقولون في تعريف الإيمان : ما وقر في القلب ، وصدّقه العمل ، فلابد من العمل ، والدليل على ذلك قول النبي - ﷺ - لمن سأله عن الساعة : وماذا أعددت لها ؟

وإذا كان الرجل قد قال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ، ولكني أحب الله ورسوله ، فليس معناه أنه لا يصلي أصلًا ولا يصوم .

وقد روي أنهم قالوا للنبي - ﷺ - إن امرأة كثيرة الصيام والصلاة ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها ، فقال : هي في النار .

وقيل له : إن فُلاَنة قليلة الصلاة والصيام ، ولكنها لا تؤذي جيرانها ؛ فقال : هي في الجنة .

وليس معنى هذا أن الذي أو التي يحسن إلى جيرانه ، ولا يؤذيهم بلسانه في الجنة ، وإن كان تاركًا للصلاة المكتوبة ، وصيام رمضان والزكاة ، والحج الذي استطاع إليه سبيلًا ، ولم يحج .

ويفهم من هذا أن الإسلام دين المعادلة في كل شيء ، وأن للعبادة فيه روحًا ، هي التقوى ، وأن للحب فيه برهانا يدل عليه ، ولن يكون المحب صادقًا إلّا إذا أثبت آية حبه عملًا ينطق ويعبر عنه قبل أنْ يعبر لسانه ، أحب الصديق أبو بكر - رضي الله عنه - رسول الله - ﷺ - فبكى فرحًا أنه سوف يصحبه في هجرته الغراء ، وقد أعدّ لذلك راحلتين ، وأخذ ماله النقدي ، واشترى من حر ماله العبيد الذين كانوا يضربون في الله - عز وجل - ولم تفته مع رسول الله - ﷺ - غزوة ، وكذلك أحبه الصحابة الأخيار الذين كان جهادهم في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم كما قال - تعالى - .

والله - تعالى - يقول : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] .

فجعل - سبحانه وتعالى - آية حبه اتباع رسوله - ﷺ - واتباع رسول الله - ﷺ - يعني اتباع سنته ، وسننه - ﷺ - يعني : طريقته ، وطريقته - ﷺ - عمل وقول فمن أحب رسول الله - ﷺ - أقام الدين ، وإقامة الدين تعني إعلاء رايته ،

(1) آل عمران : 31 .

ومناصرة أتباعه ، وفعل الخيرات التي يراها الناس ، فيسألون : مَنْ فعل هذه الخيرات ؟ فيقال : المسلمون ، دون إعلاء بمكبرات الصوت ، وتشويش ، ومعارك كلامية .

في جملة واحدة قالها النبي - ﷺ - آمرًا أصحابه - رضوان الله عليهم - بأن يتصدقوا لإخوانهم اجتمع الناس عليها ، فكان هرم من الصدقات بين يديه - ﷺ - في زمن يسير ، جاء عبد الرحمن عوف وأبو عقيل الأنصاري - رضي الله عنهما - بنصف ما عندهما جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف ، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر ، هو نصف ما عنده ، ما كان منه - ﷺ - خطب كثيرة ، ولا قصائد دعا إليها شاعره حسان بن ثابت ، وهذا شأن من يقيم الدين تكفيه الإشارة ، فيعمل العمل العظيم .

....

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾[1] .

أمر ربنا - تعالى - أن تؤتي ذا القربى حقه من المال ، زكاة ، وصدقة ، وتعهدًا ، والمسكين ، وابن السبيل ، ونهانا عن التبذير ، وهو إنفاق المال في غير وجهه ؛ لأن المبذرين إخوان الشياطين أي على طريقهم ، وكان الشيطان لربه كفورًا .

---

(1) الإسراء : 26 - 28 .

ثم قال – عز من قائل – : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ ، أي في حال الضيق ، فانظر كيف عبر عنه النظم الجليل ﴿ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ فالمسلم في حال الضيق ليس في ضيق على الحقيقة ، وإنما هو في حال تطلع إلى ما عند الله ، وهو يرجو ، والرجاء محقق إن شاء الله ؛ لأن رحمة الله قريب من المحسنين ولا شك أن أصحاب الحقوق عليه يسألونه وهو في هذه الحالة ، وعليه أن يقول لهم كما وجهه ربه – عز وجل – قولًا ميسورًا – نحو «إن شاء الله يأتي الخير قريبًا وأرسل إليكم» ومثل ذلك .

فانظر إلى ما عليه كثير من الناس في هذا الزمان ، كيف يقول المرء في هذه الحالة معجمًا من كلمات السوء ؛ مثل «مِنْ أين ؟ .. وكان زمان .. وأليست في عيونكم نظر ، وأنا على الحديدة ، والعبد وصاحبه» وقد يسيء إليهم بالألفاظ ، وبلسان الحال معًا ، وكأنهم هم السبب في خراب بيته ، وفي ضيق ذات يده وقد سمعت بعض هؤلاء يقول لأحد أقاربه : إنك أنت السبب في خراب بيتي ، فقبل أن تدخله كنا في رخاء ، وبعد أن دخلته صرنا في ضيق عظيم ، وأنا أحلف بأغلظ الأيمان أنك سحرت من أجلنا ، وعملت لنا أعمالًا سفلية ، فنحن لسنا غرباء عن بعض ، ومنذ طفولتي وأنا أسمع من والدي الحاج – الله يرحمه – أن أمك – ولا يجوز على إلّا الرحمة – صديقة السحرة وعميلة لأكبر الدجالين الذين يعملون الأعمال السفلية ، وفي غيرها ؛ فكسر بخاطر قريبه وأساء إليه في أمه ، فهل ترى ذلك من ابتغاء رحمة الله يرجوها العبد ، الذي يكون في حال ضيق ويسأل الله أن يوسع عليه ؟!

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ .

يقول الله – تعالى – : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾(1) .

معنى الآية لا تكن بخيلًا فقيرًا شحيحًا ، ولا مسرفا مضيعا كل مالك ، فتقعد بعد ذلك ملومًا منكشفا لا شيء يسترك ، محسورًا : من حسره السفر إذا بلغ منه . والدعوة إلى الوسطية ، وهي المنزلة بين الإفراط والتفريط دعوة هذا الدين في كل شيء ، عبادة ، وعملًا ، ومعاملة وفي الحديث الذي رواه الثقات يقول النبي – ﷺ – أحبب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون عدوك يوما ما ، وأبغض عدوك هونا ما ، عسى أن يكون حبيبك يوما ما ، لا سيما في الإنفاق ، فالمال عصب الحياة ، وقد روى الذهبي في سير أعلام النبلاء أن سفيان الثوري المحدث استفتاه رجل وهو يشتري فاكهة ؛ فقال له : إن سؤالك إياي لا يصلح الآن ، أما ترى عقلي ذهب مع درهمي ؟

وقد قال العلماء : إذا ذهب مال المرء ذهب معه عقله وفي صحيح عن سيدنا رسول الله – ﷺ – أنه قال : إن لصاحب الحق مقالًا .

والرجل أصبح يقلب كفيه على ما أنفق في جنته وهي خاوية على عروشها .

وتأمل هذا المثل العظيم ، وهو من أمثال الكتاب الكريم حيث يقول الحق – تعالى – : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾(2) .

(1) الإسراء : 29 .

(2) البقرة : 266 .

وما أحد من الأسوياء - والمكلفون بلا شك أسوياء - يود أن تكون له هذه الثروة، وتحترق، وليس له من ذريته مَنْ يعينه، فهم ضعفاء، وقد أصابه الكبر.

وقد روى الزمخشري[1] أن صبيا أتى رسول الله - ﷺ - وقال له: إن أمه تستكسيه درعًا؛ فقال: من ساعة إلى ساعة يظهر؛ فعد إلينا فذهب إلى أمه؛ فقالت له: قل له إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك، فدخل داره، ونزع قميصه وأعطاه إياه، وقعد عريانا، وأذّن بلال، فلم يخرج للصلاة.

وقد ذكر الشهاب الخفاجي[2] أن العراقي قال إنه لم يجد هذا الحديث في كتب الحديث؛ لذا وجب التنبيه هنا، وعلى أية حال إن الأمة التي جعلها الله - عز وجل - أمة وسطا، أي عدولًا في حاجة إلى هذه الآية الكريمة لتعرف منهج ربها - عز وجل - في الإنفاق، وإلى قول الله - عز وجل -: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾[3] فإنهما بمعنى واحد، حيث لا بخل ولا إسراف.

وكي تدفع وهم الشيطان الذي فت في فكر كثير من الناس، حيث قال: «اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب» دعوة إلى إنفاق جميع ما في الجيب وقل يا باسط، وعندها يصيبك وابل من الرزق المكتوب في الغيب، وقد ذكر المفسرون قول مجاهد لا يغرنك قول الله - تعالى -: ﴿ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ ﴾[4] قال: ذلك في الآخرة، وأنا لا أقول في تواضع شديد: إن الغيب قد طلع في هذا السياق، أظهرنا الله عليه حيث قال: فقعد ملومًا محسورًا، فأي غيب ينتظره المؤمن بكلام الله بعد هذا، فليأخذ كل حذره حتى لا يكون ندم بعد فوات الأوان!

(1) انظر الزمخشري: 2/ 447.

(2) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب الخفاجي عليه: 6/ 28.

(3) الفرقان: 67.

(4) سبأ: 39.

﴿ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا * إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴾[1] .

إننا في حاجة إلى نظر ما يأتي في حياتنا وأن نعمل به في ضوء هاتين الآيتين :

1 - عدم الخوض طويلًا فيما لا نعلم ، والاهتمام بما نعلم ؛ فقد قال الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدى ﴿ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ ﴾ ، ثم قالوا فابعثوا أحدكم بورقكم ...

2 - وأن التزود بالمال والمتاع لا يتنافى والإيمان ، بلهو منه ، فقد قال الله - عز وجل - ﴿وَتَزَوَّدُوا ﴾ في سورة البقرة (197) ، وقد نزلت في جماعة من أهل اليمن كانوا يحجون بغير زاد ، ويقولون : نحن متوكلون ، فإذا جاعوا مدوا أيديهم إلى الناس ، فنزلت ، وقد كان مع الفتية أصحاب الكهف ورق ، أي فضة مضروبة ، أي مال .

3 - وأن المؤمن يأكل أزكى الطعام ، وأجمله ، على عكس ما يزعم كثير من الناس الذين يرون أن هذا من الطيبات ، ومن أكله في الدنيا ، فقد عجلت له طيباتها .. وسوف يحرم منها في الآخرة وهذا ليس صحيحًا ، بدليل هذه الآية ،

(1) الكهف : 19 ، 20 .

وبقوله - تعالى - في سورة الأعراف : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[1] .

4 - على المؤمن أن يأخذ حذره ، وألا يفهم أن التوكل على الله معناه أن يكون أمره فرطا ، ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾[2] والله - تعالى - يقول في سورة النساء ﴿ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴾[3] .

5 - وهذه الآية الثانية ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾[4] وأختها في سورة التوبة : ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[5] .

دليل دامغ على أن المؤمنين يخاطبون بالظهور أي بالغلبة على غيرهم اقتصاديا وعلميا وسياسيا ؛ فإن غيرهم لو غلبوا وظهروا رجمونا ولم يرقبوا فينا ربا ولا عهدًا ، فلا تكفي المظاهرات ولا الشجب ولا الإنكار لما يفعله بنا أعداؤنا من السخرية بديننا ، ومما أطلق عليه الرسوم المسيئة للنبي الكريم - ﷺ - .

(1) الأعراف : 32 .
(2) الكهف : 19 .
(3) النساء : 102 .
(4) الكهف : 20 .
(5) التوبة : 4 .

فخير رادع لهؤلاء أن نعمل ، وأن نرقى وفي رأيي أنه ما أساء أحد إلى رسول الله - ﷺ - : «بدليل حديث البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - حيث قال - ﷺ - ألا تعجبون لما يصرف الله به الأذى عني ، إنهم يسبون مذممًا وأنا محمد» .

لا شك أن الكفار حين كانوا يذمون رسول الله - ﷺ - كانوا يقولون : مذمم كذا وكذا قالت امرأة أبي لهب :

مذممًا عصينا وأمره أبينا

ودينه قلينا

ولا شك أنهم كانوا يقصدونه - ﷺ - ومع ذلك قال صرف الله الأذى عني فقس على ذلك الرسوم المسيئة ، إنها ليست رسمًا للرسول الكريم الذي كان كفلقة القمر ليلة التمام ، وهم يقصدونه كما كان الكفار يقصدونه ؛ فلا يقال إنهم أساءوا إليه ، وإنما يقال : إنهم أساءوا إلينا . وسبيلنا إلى دفع تلك الإساءة أن نظهر عليهم ونحن قادرون على ذلك بمقومات منحنا الله إياها من قوى بشرية وعقلية ، ومنح طبيعة ، لكن كيف تستثمر هذه القوى ونحن أقرب إلى الدجل منا إلى العلم ، وإلى الخرافة منا إلى اليقين والواقع ، ننفق ما لا يحصى على الترف ، ولا ننفق على العلم ونميل إلى الهوى ، وننأى عن الهدى ، اللهم قد بلغت فاللهم فاشهد .

﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ .

يقول الله – تعالى – : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا * قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾[1] .

قوله – تعالى – : ﴿ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أي السد الذي بيننا وبين الظالمين من رحمة الله ، وكذلك المال ألا ترى إلى قول الله ربنا في كنز الغلامين ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[2] .

وقد ذكرت هذه الآيات الكريمة من سورة الكهف ؛ لأبين أن عبدًا من عباد الله – تعالى – هو ذو القرنين لما عرض عليه القوم جعلًا (أجرًا) على أن يجعل بينهم وبين المفسدين في الأرض سدًّا قال : أعينوني بقوة وكان ما كان من هندسته ، حيث بنى هذا السد العظيم . ما قال لهم : هيا قفوا ورائي صفًّا أو صفوفا ، وندعو جميعًا على المفسدين في الأرض كحال كثير من المسلمين اليوم «اللهم شتِّت شملهم ، واجعل كيدهم في نحورهم ، ويتم أطفالهم ، وعليك بهم ؛ فإنهم لا يعجزونك» هذا دعاء طيب يدعو به المسلمون وهم يجاهدون ، لا وهم ينامون ، ويكسلون ، ويؤثرون التواكل على التوكل .

(1) الكهف : 93 - 98 .

(2) الكهف : 82 .

والله - عز وجل - قدير ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[1] .

وقس على ذلك أن لو يشاء الله لأنزل رزقه من السماء ولكن جعل الله أسبابا ، وقال : ﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[2] وقد قال - ﷺ - «**دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض**» .

....

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ ﴾ .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾[3] .

يقول الزمخشري : «أي بجد واستظهار بالتوفيق والتأييد»[4] .

يا ليت كل طالب علم يأخذ الكتاب بجد واستظهار فيقرأ ، ويفهم ، ويستنبط ، آية تصلح أن تكون ورقة عمل للتربية والتعليم .

ويا ليت كل مسلم مكلف يأخذ الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بجد واستظهار ، فيحل حلاله ، ويحرم حرامه ؛ ويعمل بمقتضاه ، أن يكون للكتاب الكريم أثره في حياته ، فإذا به يرقى إلى تحقيق معانيه ، فيحق الحق

(1) محمد : 4 .

(2) الملك : 15 .

(3) مريم : 12 .

(4) الكشاف : 2/ 504 .

ويبطل الباطل ، انظر إلى الدساتير التي أصابتنا بالبلايا ، وكأنها منزلة من السماء ، تقول : هذا دستوري وهذا غير دستوري ، وهذا مستحيل ؛ لأنه يخالف الدستور ويا ليتنا نفعل ذلك مع كتاب ربنا ؛ فنقول : هذا قرآني وهذا غير قرآني ، وهذا لا يجوز ؛ لأنه يخالف كتاب الله .

....

﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ ﴾ .

يقول الله – تعالى – : ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾[1] .

على غير ما يتوهم كثير من الناس جاءت هاتان الآيتان مبينتين أن المرء إذا اعتزل الضلال وأهله وهب الله – تعالى – له من الخيرات مثل ما جاء فيهما ، قال الزمخشري في معنى ﴿ مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾ : المال والولد ، وتكون عامة في كل خير ديني ودنيوي أوتوه»[2] .

إن الشيطان يوسوس في صدور ضعاف الإيمان أنهم لو تركوا العمل في المحرمات ماتوا جوعًا ، وضاعوا وضيعوا أولادهم ، وهذا ليس صحيحًا بدليل هاتين الآيتين يقول من يعمل في الخمر ، والخنزير ، والربا : ماذا أعمل ولا أعمل ، وقد يقول : لا أُحْسِنُ غير هذا ، وهذا غير صحيح فإن أبواب الله – عز وجل – مفتحة ، وعند الله – تعالى – مغانم كثيرة ، انظر إلى هذه الراقصة التي تقول اضطررت إلى هذه الحرفة لأربي أخواتي وأعول أمي المريضة .

---

(1) مريم : 49 ، 50 .

(2) الكشاف : 2/ 512 .

وليس في التعري وعرض السوأة على الأجانب من ضرورة ، إنما تقدر الضرورة بقدرها ، وهي أن يأكل الجائع جزءًا من ميتة أو دم حتى يصل إلى بلاد الناس فيعمل ، أو يستطعم ، أو يمد يده يسأل الناس قال - ﷺ - إن المسألة لا تصلح إلى لذي فقر مدقع ، أو لذي غرم مفظع ، أو لذي دم موجع ، وقد قال الله - تعالى - في سورة النور : ﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ** ﴾[1] . فالذي لا يجد سبيلًا إلى الزواج ليس مضطرًا إلى الزنا ، وإنما عليه أن يصوم ليتحلى بأخلاق الصائمين ، وليكسر شهوته إن كانت جامحة ، ويعمل حتى يغنيه الله من فضله ، ويجد ما يتزوج به .

والناس يقولون في هذا السياق كلامًا والعياذ بالله ظاهره أننا وحدنا في هذه الحياة بلا رب يدبر لنا أمرنا ، ولا شك أن وضع هاتين الآيتين نصب أعيننا معناه الإفاقة من سهو الفكر ، ونسيان الرب ، وإبصار الرشد ، فمن ترك الحرام أغناه الله - تعالى - بالحلال .

(1) النور : 33 .

﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ .

وفي صدر سورة طه يقول الله ربنا رب العالمين : ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾[1] .

معنى قوله – تعالى – : ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ أنزلنا عليك القرآن لتسعد ، فهل فهم كثير من المسلمين أن الإسلام دعوة إلى السعادة ، وقد فصلت الكلام في هذا الموضوع في كتابي «الإسلام دعوة إلى السعادة» .

فالله لا يكلف نفسًا إلّا وسعها ، وهذا الكتاب الكريم يهدي للتي هي أقوم ، أي للطريقة المثلى في كل شيء ، وهو دعوة إلى الفرح لا إلى الغم والنكد ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[2] وهو دعوة إلى الأمل والتفاؤل ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[3] .

وما خُيِّر – ﷺ – بين أمرين إلّا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا .

إنه دعوة إلى السعادة بالتوحيد ، فالله واحد ، بيده الملك وليس له شريك في الملك ، ولا يشرك في حكمه أحدًا وهو يجيب دعاء مَنْ دعاه : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[4] ، ويكشف الضر ، ويقول للمسرفين على أنفسهم في

(1) طه: 1 ، 2 .

(2) يونس : 58 .

(3) الشورى : 28 .

(4) غافر : 60 .

الذنوب والمعاصي ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1] .

ومن حيث هو دعوة إلى العزة والكرامة ، والحرية ، والمساواة بين الناس ، وبين الذكر والأنثى ﴿ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾[2] والتكافل الاجتماعي ، والبعد عن الخبائث الضارة ، أحل الله الطيب وحرم الخبيث ، ومن حيث هو دعوة إلى العفو والصفح والتسامح والبعد عن سوء الظن ، ومعالجة ما في الصدور من شك وريبة ، إلى آخر ما اشتمل عليه من فضائل ومبادئ تحقق السعادة في أعلى صورها ، وأسمى آياتها !

حتى في تلاوته يقول - تعالى - في ختام سورة المزمل : ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾[3] .

(1) الزمر : 53 .

(2) آل عمران : 195 .

(3) المزمل : 20 .

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[1] .

خص العلم بالذكر ؛ لأنه أساس في فهم الدين الصحيح ؛ فإن هذا الدين علم ؛ ولذا وجب على المسلم أن ينظر عمن يأخذ دينه ، ولأنه كذلك أساس لبناء الملك والدولة :

بِالعِلْمِ والمالِ يَبْني النَّاسُ مُلْكَهُمُو   لَمْ يُبْنَ مُلْكٌ عَلى جَهْلٍ وَإِقْلالِ

لكن – كما ترى في البيت السابق – لا يبنى الملك على العلم وحده ؛ إذْ لابد من المال الذي يحقق العلم الكائن في العقول والكتب إلى واقع مشاهد ، تراه العيون ، من مبان ، ومؤسسات ، ومزارع ، ومصانع .

لكن كثيرًا من الخطباء والوعاظ لا يدركون قضية المخصوص بالذكر هذه ، فنراهم حين يتعرضون لهذه الآية الكريمة يقولون : ما زاد القرآن الكريم على سؤال الزيادة في العلم ماذا قال الله يا إخوتي وأحبتي ؟ قال : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ، زدني ماذا يا أحبة رسول الله – ﷺ – ؟ زدني علمًا .

يعني : زدني علمًا ، ثم يصرخ الواحد منهم ، ويقول لم يقل : زدني مالًا ، ولا زدني جاها ، ولا سلطانا ولا ولدًا !

وإنما قال زدني علمًا.

ثم يبدأ الواحد منهم في مدح العلم ، وذم ما عداه من سائر نعم الله – عز وجل – فهو يذم المال ؛ لأنه يطغي صاحبه ، ويفسده ، ويعينه على معصية الله – سبحانه وتعالى – .

(1) طه : 114 .

ويلعن الكراسي ، والمناصب ، ويلعن أهليها والحكام وكأن كل حاكم مفسد ، وكل والٍ ظالم ، ويذم الولد ، والزوجة ، ويقول : إن الولد سبب في السرقة من أجله ، و(نعيان همه) ، وكل ذلك بعيد عن الصواب .

فإن النص على العلم في طلب الزيادة لا يعني عدم سؤال الزيادة من غيره من المال والملك والسلطان ، والولد وقد سبق ذكر ما قاله المفسرون في قوله - عز وجل - : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾[1] أي من كل خير دنيوي وديني أوتوه ، والله - تعالى - يقول : ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾[2] وفضل الله عظيم واسع ، يشمل العلم وغيره من النعم التي لا تحصى ، وقد قال سليمان - عليه السلام - : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾[3] وآتاه الله - عز وجل - ما سأل ومن دعاء النبي - ﷺ - اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وكان النبي - ﷺ - يدعو بعد كل طعام قائلًا : اللهم ارزقنا خيرًا منه إلّا اللبن ، فإنه كان يقول : اللهم بارك لنا فيه ونحن نقول في كل شيء نتناوله «واحفظه من الزوال» و«يدوم .. اللهم أدمها نعمة» كأننا نريد الوجبة نفسها دون تغيير ، فليقل المسلم «رب زدني علمًا» ورب زدني ولا تنقصني من كل خير يعينني على طاعتك .

(1) مريم : 50 .
(2) النساء : 32 .
(3) ص : 35 .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍ ﴾ .

يقول الله – تعالى – : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[1] .

الحَرْف معناه : الطرف ، أي على طرف الدين ، لا في وسطه وقلبه والمعنى أن هناك من يعبد الله على طرف الدين ، فهو جاهز مستعد للنزول عنه ، وتركه ، قال الزمخشري[2] : «وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم ، لا على سكون وطمأنينة ، كالذي يكون على طرف من العسكر ، فإذا أحس بظفر وغنيمة قرّ ، واطمأن ، وإلّا فرّ وطار على وجهه ، قالوا : نزلت في أعاريب قدموا المدنية ، وكان أحدهم إذا صح بدنه ، ونتجت فرسه مهرا سريًّا ، وولدت امرأته غلامًا سويًّا ، وكثر ماله وماشيته قال : ما أبت منذ دخلت في ديني هذا إلّا خيرًا واطمأن ، وإن كان الأمر بخلافه قال : ما أصبت إلّا شرًّا وانقلب» .

ألَّا يذكرنا ذلك بقول التي خلعت غطاء الرأس بعد أن وضعته : ما أصبت من خير منذ وضعته ، فقد فقدت فرص عمل كثيرة ، وشعرت بضيق واختناق ثم تبدأ في ذم بعض من عرفت من الشيوخ ، والأخوات المحجبات ، وتقول عرفت هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم (أي السيئة) لأن الحجاب قربني منهم ، وتمدح صواحبها القديمات السافرات ، وأنهن اللاتي عرفن الدين حقا وصدقا بالقلب لا بالشكل ، ثم تقول هذه العبارة الغريبة العجيبة ، وهي أن الحجاب حجاب الداخل لا الخارج أي أن الملتزمة بمبادئ الدين هي المحجبة حقًّا وإن كانت عارية ، والمحجبة فيما تراه

(1) الحج : 11 .

(2) الكشاف : 3/ 7 .

العيون ، التي فيها وفيها عارية فلو أصابت مثل هذه التي أقيمت لها حفلات التهنئة بمناسبة وضعها غطاء رأس «الحجاب» لو أصابت أمولاً وأعمالاً لاطمأنت لهذا الدين وهذا الالتزام ، لكنها أصيبت بخسارة واكتئاب ، فخلعت ما سترت به رأسها ، وعادت سيرتها الأولى .

ناهيك بمن تقول : إنها حين وضعت حجاب الرأس على رأسها ، ونظرت في المرآة وجدت نفسها عجوزًا دميمة ، فلم تستطع ، ناهيك بمن يقول - وقد سبق ذكر ذلك - إنه عندما التزم بمبادئ الدين والحلال جرى له من السوء الكثير ، وغير ذلك ممن يعبدون الله على حرف ، ولو علموا أن الاختبار تمحيص لما في القلوب ، وأن الله رازق عباده المؤمنين خيرًا وأن هذا الخير قريب بلا ريب لما توهموا ما توهموه فخسروا حين انقلبوا على أعقابهم الدنيا والآخرة ؛ نعم خسروا الدنيا ؛ لأن انقلابهم لن يأتي بخير ، وقد قال الله - تعالى - : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[1] والله تعالى رب العالمين ، يرزق المؤمن والكافر ، ورزق المؤمن غير رزق الكافر ، فالمؤمن يستمتع برزقه ويكفي له ما عند الله ، وهو خير وأبقى ، والكافر تعجل له طيبات الحياة الدنيا ، وما له في الآخرة من نصيب .

(1) النحل : 53 .

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ .

يقول الله – تعالى – : ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ * لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1] .

هذه الآيات يجب أن تكون نصب أعين المسلمين في كل مكان وزمان خصوصًا مسلمي هذا الزمان الذين يحسبون الكلام في الأعراض هينًا ، وهو كما قال الله – تعالى – ﴿ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ .

وتثير هذه الآيات قضايا مهمة :

1 – حسن الظن بالمؤمنين والمؤمنات ، حتى يثبت العكس ، ولا يثبت إلّا ببينة ، كما قال الزمخشري[2] على عكس ما هو شائع من سوء الظن .

(1) النور : 12 - 19 .

(2) الكشاف : 3/ 54 .

2 - والذين لا يأتون بالشهداء عند الله ، وفي أحكام شريعته أي عند الله ، هم الكاذبون .

3 - وأنه لولا فضل الله - تعالى - علينا في الدنيا والآخرة لمسّنا فيما نفيض فيه عذاب عظيم .

4 - وأن الذي نحسبه هينًا هو عند الله عظيم ، فيجب أَنْ نعظم ما عظم الله ربنا ، وألا نجعله هينًا ، ما دام عنده - عز وجل - عظيمًا .

5 - ونفي الكون العظيم في هذه الآيات وفي غيرها ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾[1] .

فتأمل قول الله - تعالى - : ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾ أي ما ينبغي أصلًا من قريب أو بعيد أن نتكلم بهذا ، فكيف كان ، وهو مما ينبغي ألا يكون ؟!

6 - وأن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة .

وما أكثر الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا في هذه الأيام ، وهذا ليس في مجال الخوض في الأعراض فحسب ، وكفى به ضلالا مبينا ، وإنما في كل شيء فعند هؤلاء :

1 - لا أحد يعمل عملًا لوجه الله .

2 - ولا أحد عنده ضمير في عمله .

3 - ولا أحد يعين أحدًا على تكاليف معيشه .

(1) النور : 16 .

4 - وأن الأب لم يعد أبًا ، والأم لم تعد أمًّا ، والأخ لم يعد أخًا، والصديق لم يعد موجودًا ، فهو من المستحيلات الثلاثة ، ليس في حاجة إلى أن يكون رابعًا .

الغول والعنقاء ، والخل الوفي .

5 - وأن الجيران أسوأ أناس .

6 - وأن خاطب الفتاة الغنية طامع في مال أبيها الذي ورثته عنه .

7 - وأن الراغبة في الزواج من غني لا تحبه لذاته ، وإنما تحبه لماله فقط .

إلى غير ذلك ، فهل هذا يقبل على وجه التعميم ؟!

....

﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[1] .

من آداب الإسلام الاستئذان ، وقد جاء في الحديث إنما جعل الاستئذان من أجل النظر ، ومن أهم أسباب القطيعة بين الأرحام سوء الزيارة ، فإن من الأقارب من يظن أن عتبة بيوت أرحامه من حقه ، فهو غير مريح في زيارته يقتحم الأبواب المغلقة ، ويفسد في المطبخ ، ويستعمل الأجهزة المنزلية دون استئذان ، ويتحرك كأنه في بيته ، بل إنه في بيته يكون أكثر هدوءًا والتزاما ، فإذا زار أرحامه وأقاربه عربد ، وأفسد ، وضيق عليهم .

(1) النور : 27 ، 28 .

ويقول الله – تعالى – : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ باستثناء ما إذا كان فيها حريق ونحوه ، ثم يقول – تعال – : ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ .

لا شك أنّ الرجوع أفضل من الوقوف على الأبواب ، والإلحاح في الاستئذان ، ورفع الصوت بالنداء ، فإن ذلك كله مما يتعارض والمروءة ، التي يتحلى بها المسلم ، وقد قال الله – تعالى – في قوم من بني أسد : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[1] .

قال الزمخشري[2] : «كفى بقصة بني أسد زاجرة ، وما نزل فيها ، ثم قال – رحمه الله – : «الرجوع أطيب لكم ، وأطهر ؛ لما فيه من سلامة الصدور ، والبعد من الريبة ، أو أنفع ، وأنمى خيرًا» وكذلك قال البيضاوي والشهاب الخفاجي[3] وغيرهما ولعلك رأيت بعض السلوكيات غير الطيبة في هذا السياق ، وإصرار بعض الزائرين على دخول البيوت دون موعد سابق بينهم وبين أصحابها ، وترى المرء يقول لصاحبه : وجدت نفسي مارًّا بالقرب منكم فقلت أزوركم ، وكأنه من الذين قيل فيهم :

تَمُرُّونَ الدِّيَارَ ولَـمْ تَعُوجُوا   كَلامُكُمُـوا عَلَيَّ إِذًا حَـرَامُ

فهؤلاء كانوا أحبة ، ومثل هذا الذي وجد نفسه يمر في شارع صاحبه ليس من الأحبة ، بل من الثقلاء وللبيوت حرمة يجب صونها ، حيث إنها مستقر الناس وعوراتهم ، ومواضع راحتهم ، وتأديب أولادهم ، فكيف يقتحمها زائر وجد نفسه قريبًا منها !

(1) الحجرات : 4 .

(2) الكشاف : 3/ 60 .

(3) انظر عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي : 6/ 371 .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾[1] .

كان لابد أن تكون هذه الآية الكريمة معنا في هذا الكتاب لما يتوهمه كثير من الناس ؛ من أن انتظار المرء جميع أفراد أسرته حتى يأكلوا جميعًا من الواجبات .

وقد أقام شاب الدنيا على زوجته الشابة لأنه عاد من خارج بيته قبيل الفجر وحين سألها إحضار عشائه وأحضرته ، قال لها : ألن تأكلي معي ؟ قالت : سبقتك ؛ قال مع مَنْ قالت : وحدي ، قال : أما انتظرتني ؟ قالت : كنت جائعة ، قال : كانت أمي تنتظر أبي ، حتى ولو ماتت جوعًا ورمى بالطعام ، ولم يأكل ، وكان ما كان من مأساة ، وكذلك الضيف الذي يظن أن عدم أكل مضيفه معه إهانة له ، وليس ذلك بصواب فقد رفع الله الحرج عنا ، فما علينا من جناح أن نأكل جميعًا ، وما علينا من جناح أن نأكل متفرقين .

ولا شك أن الاجتماع على الطعام سنة مندوبة ، ومخالفتها لغير ضرورة بدعة ، وفيها تفصيل ذكره الشهاب الخفاجي في حاشيته[2] ، وخلاصته أن الناس يختلفون في محبة الطعام وكراهيته فمن أحبه كره من يشاركه فيه لشرهه ، وفيها أن يجوع واحد وأهله غائبون ، ومنها أن يكون المضيف على شبع ، وفيها اختلاف العادات في الطعام ، أي اختلاف طرق الناس في تناوله ، والدين واسع ، ورحمة الله أوسع ، فليأكل كلٌّ مشتهاه ، كما قال أبو الهيثم التيهاني للنبي - ﷺ - وقد قال عمر - رضي الله عنه - لضيفه : لولا أني اليوم صائم لأكلت معك .

---

(1) النور : 61 .

(2) انظر : حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي : 6/ 40 .

وعلينا ألا نضيق واسعًا وسعه الله - عز وجل - فنتعنت، ونتبع أسوأ العادات، ونصر على شيء فيه سعة، والحياة جميلة، كما أراد الله لها أن تكون، ونحن الذين نصنع القبح فيها.

....

﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾.

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(1).

ما أشد حاجتنا معشر المسلمين إلى نور هذه الآية وغيرها من الكتاب الكريم؛ حيث قال الله في تلك الآية الكريمة ﴿ وَٱلَّذِين جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ إنها قضية الإخلاص متى تحققت تحققت نتيجتها، أي متى كان جهادنا لله وفي الله، لا في سواد أعين الناس، ولا من أجل الرياء والسمعة كانت النتيجة هداية لا ضلالة وخيرًا لا شرًّا، وتوفيقًا لا إخفاقًا.

إنني أدعو نفسي والناس إلى مراجعة مقاصدنا والاستغفار من ذنوبنا، ومن ذنوبنا أننا نعمل الأعمال مشوبة، غير خالصة تمامًا، والنتيجة كما نعلم، نلقى جمودًا ونكرانًا وسوءًا، ونضع وجوهنا آخر الأمر في أكفنا، وتقتلنا الحسرات، ونعتصر ألـمًا وحسرة، ونشكو الناس والزمان، ونعاني كل صفوف الحرمان، والسبب أننا لم نجاهد إذْ جاهدنا في الله - عز وجل - ولم نطعم إذْ أطعمنا لوجهه - عز وجل -

(1) العنكبوت : 69.

وإنما جهادنا دَخَل ، وفي عملنا شيء والدليل على ذلك تلك النتيجة السيئة التي لقيتنا ولقيناها .

ونحن نعتقد فيما نعتقد هذا المعنى : صدق الله ، وكذبت أعيننا .

روى مالك في الموطأ أن عيسى عليه السلام وجد رجلًا يسرق ، فسأله : لم سرقت ؟ فقال : والله الذي خلقك ما سرقت ؛ فقال عيسى عليه السلام : أصدق الله وأكذب عيني .

ومما قاله العلماء في تفسيره أنه رآه يسرق على الظاهر ، لكن المال كان ماله ، فهو صادق إذْ قال : والله الذي خلقك لم أسرقك .

نعم نصدق الله – تعالى – ونكذب أنفسنا ، وقد صدق الله ربنا ؛ إذْ قال : والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ والإحسان في كل شيء ، وهو كما روى البخاري من حديث جبريل الذي رواه عمر – رضي الله عنه – أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، فإن كنت كذلك فالله معك معية اطلاع ونصر وتأييد .

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول الله – تعالى – : ﴿ الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

تثير هذه الآيات المباركة قضية من أهم القضايا وهي الفرح لفرح الغير ، خاصة إذا كان هذا الغير ذا صلة بنا ، فإن الروم الذين غُلبوا وعد الله بأنهم سيغلبون في بضع سنين ، وعندها يفرح المؤمنون ، فما سبب فرحهم ؟ قال العلماء : لأن الروم أهل الكتاب فهم أقرب إلى المؤمنين من الفرس الذين يعبدون غير الله – تعالى – .

وتثير الآيات قضية من أهم القضايا هي البحث عن زوايا قد تكون بعيدة عمن لم يوفقه الله ، فلا يرى في غيره شيئًا يربطه ؟

أما من وفقه الله – تعالى – ورحمه فهو يرى زاوية من زوايا القضية ، لا يراها غيره ، ولتوضيح ذلك أقول : إن الرجل قد يكره في المرأة خلقًا ؛ فيحب فيها غيره فإذا الذي أحبه فيها يطغى على الذي يكرهه ، فيحسن إليها ويبقيها .

بخلاف الذي لا ينظر إلّا إلى تلك الزاوية البغيضة ، فإذا به يراها متراكمة بعضها فوق بعض فإذا بهذه المتراكمات تصبح كالجبال الراسيات ، فتحجب عنه سائر الزوايا ، ومنها زاوية لو رآها لفرج الله عنه كربه ، وكشف ما به من غم وهم ، ورزقه من لدنه رزقا حسنًا .

(1) الروم : 1 - 6 .

وقد يسافر المرء ، فلا يرى غير المعاناة في طريقه فإذا به يسخط ، وقد يتردد ، ويعود ، ولو أحسن النظر لوجد فوائد في السفر تهون عليه متاعبه فإذا به يتطلع إلى ثمرات طيبة ، وغايات نبيلة ولولا التطلع إلى الغايات ما صبر طالب علم على طلبه وما صبر عابد على إسباغ الوضوء على المكاره بل ، وما صبر مجاهد في سبيل الله على الجهاد وهانت في الله نفسه .

....

﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗ ﴾ .

يقول الحق وتعالى : **﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴾**[1] .

طفولة ضعيفة ثم شباب ثم كهولة ضعيفة وشيبة مَنْ يتدبر هذه الآية الكريمة يدرك أن القوة بين ضعفين ، فهي بمثابة الجملة الاعتراضية بين متلازمين كالمبتدأ والخبر ، والفعل والفاعل كما يقول اللغويون وكما تكون الجملة الاعتراضية على خلاف الأصل في الكلام هكذا يكون الشباب ، فالأصل في الكلام اتصال الخبر بالمبتدأ ، ففصل بينهما الاعتراض في نحو قولك محمد - هداك الله - قائم ، أو أنا - هديت الرشد - عالم . والأصل في الإنسان الضعف ، أوله وآخره ، وفصل بين الضعفين شباب ، فهو فرصة عظيمة لا تعوض ومن ثم أقول في وصف هذه الآية التي اخترت في هذا الكتاب : إن الدين لا يقوم به خير قيام إلّا الشباب ، والدليل على ذلك أن الطفل غير مكلف وأن الشيخ ذو علل وأمراض وأعذار في الغالب فمن بقي مكلفا قادرًا على أداء ما كلف به الشرح على وجهه ؟ لم يعد إلَّا الشباب .

فأي الشباب فهم ذلك ؟ وهل المعنيون بتربية الشباب يدركون ذلك ، ويعدون له العدة ، أم أن الجميع في غفلة خاصة الآباء والأمهات ، والمربين والمسئولين الذين

(1) الروم : 54 .

لا يعنون إلّا بمراكز شباب وأندية ليس لها من خطة تربوية صحيحة لبناء الشباب . كم من أب وأم يزعمون أن ابنهما الشاب في مقتبل العمر ، وأن العمر أمامه طويل ، ويعدان ذلك مسوغًا للهوه وعبثه ، ولعبه بالبنات وشربه المخدرات !

حتى إذا هلك في حادث سيارة ندما على ما كان ، وقد هلك شاب في السابعة والعشرين من عمره ، وكنت من الذين عزوا أمه العجوز التي قالت لي : إنها لا تبكي عليه ، فهذا قدر الله وإنما تبكي له ؛ لأنه لم يركع لله ركعة ، قلت لها بهدوء ، وأين كنتِ؟ فقالت : كنت أقول ما زال العمر أمامه ، وسوف يهديه الله وكل الشباب مفرطون ، وغدًا يعقلون .

وتلك هي العقيدة الفاسدة ، أنْ يعتقد الناس أن أبناءهم وبناتهم أمامهم العمر الطويل ، وأنهم سوف يعوضون ما فاتهم ، وأن الله - تعالى - سوف يهديهم سبل الرشاد .

ومن المسائل المهمة في تلك القضية مسألة ادعاء أن الشباب لابد أن يخطئ ، ولابد أن يعبث ، ولابد ولابد . ولست أدري من أين جاء الناس بلابد هذه ، وقول من كان يسألني يومًا عن شيء ، فقال لي : أنا شاب - والشباب طبعا يفعل المنكرات ، حتى إنني قلت له : ولم التعبير بـ «طبعًا» ، الصواب أن تقول : الشباب طبعًا يقيم لابد أن يقيم الدين ، فمعاذ بن جبل أعلم الأمة بالحلال والحرام لم يكن تجاوز العشرين ، وزيد بن ثابت كذلك وهو من كتاب الوحي ، تعلم لغة يهود في خمسة عشر يومًا ، وأبو سعيد الخدري جاء ليجاهد مع النبي - ﷺ - وهو ابن سبعة عشر ، عرضه أبوه وقال للنبي - ﷺ - لا يغرنك صغر سنه إنه عبل العظام ، أي قويها شديد ، والأسماء كثيرة ، والشاهد أن الذين كانوا حول رسول الله - ﷺ - في العمل والعلم والجهاد هم الشباب ، وأهل الكهف فتية آمنوا بربهم وزادهم الله

هدى ، والله – تعالى – يقول : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[1] ويقول سبحانه : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾[2] . وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلّا ظله : وشاب نشأ في عبادة الله ، فعلينا أن نراجع تلك القضية وأن نُعْنَى بالشباب ؛ لأنهم عُمُد الأمة كما أن الصلاة عماد الدين .

....

﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ .

يقول الله – تعالى – ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[3] .

كانت أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – تقول حسبك بالعقلاء أن الله – تعالى – لم يحتملهم فقال : «فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث» .

وروى كل خلف عن سلف أن المرء يتحمل نقل جبل على كاهله ، ولا يتحمل إنسانا ثقيلًا على قلبه .

وسبب نزول الآية معروف وهو أن النبي – ﷺ – حين دعا الناس إلى وليمته المباركة على أم المؤمنين زينب بنت جحش – رضي الله عنها – فأكلوا ، وظلوا

(1) يوسف : 22 .
(2) مريم : 12 .
(3) الأحزاب : 53 .

يتحدثون ، إلى درجة أنه - ﷺ - خرج ومعه أنس بن مالك - رضي الله عنه - خادمه ؛ ليشعرهم بأن عليهم أن يتركوه الآن ؛ فقد طعموا ، ولكنهم لم يدركوا تلك الإشارة ، فنزلت الآية .

والعبرة كما يقول المفسرون بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب ؛ فعلى المسلم أن يكون خفيفًا في زيارته لطيفًا في تعامله مع إخوانه ، لاسيما عائد المريض الذي يزوره سنة عن رسول الله - ﷺ - وهو مأجور عليها ، عليه أن يكون كما ذكر ابن عبد البر خفيفًا في زيارته ، كرد الطرف بالعين ، يدخل فيسلم ، ويدعو ، ويسأل عن مريضه ، ويقول كما كان رسول الله - ﷺ - يقول : «طهور إن شاء الله ، لا بأس عليك» ويفسح له في الأجل ، يعينه ويعين أهله على تكاليف علاجه إن كانوا عاجزين ، وكان قادرًا ، ثم ينصرف مأجورًا مشكورًا إن شاء الله وهكذا إن زار ناسًا في بيوتهم على أدب الإسلام في الزيارة ، فإذا أكل طعامهم انصرف حتى لا يكون ثقيلًا عليهم ، اللهم إن كان حبيبًا لمزوره ، يؤنسه بقاؤه معه ، وسماع حديثه فهذه مسألة مستثناة عند العلماء ، والإسلام حريص على دوام الصلة والمودة والمحبة بين الناس ، والتخفيف من أسباب دوام ذلك .

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ .

يقول ربنا - تعالى - : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(1) .

كم يجد المتدبر الآية الكريمة من استقرار الطمأنينة في نفسه بسبب نورها ، ووضوح معناها ، وعظيم أثرها وفي البخاري أنه - ﷺ - كان يقول عقب كل صلاة مكتوبة ثلاث مرات : «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**» .

والآية والحديث على منوال واحد واتفاق ، فلا مانع لما أعطى الله - عز وجل - ولا معطي لما منع ، سبحانه ، هو يعطي ويمنع ، ويبسط ويقبض ، ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾(2) .

إن من يتدبر هذه الآية لا يقول : فلان قطع عيش فلان ؛ فإن أحدًا لا يستطيع أن يقطع عيش أحد ، وإنما هو سبب فيه بلا شك إما لغباء من قُطع عيشه ، وإما لإدارة وحكمة يعلمها الله .

وقد قال أحد الأمراء لعبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - لو أرسلت إليك بكذا ألف ، أتقبلها ؟ أم تردها ؟ فقال عمر : لا أرد رزقًا رزقني الله على يديك فتأمل هذه العبارة ، وما تستر عنه من العين استقر في نفس ابن عمر أن الأمير لا يعطي ، وقد روى البخاري وغيره عن سيدنا رسول الله - ﷺ - أنه قال : «**إنما أنا قاسم والله - عز وجل - يعطي**» .

(1) فاطر : 2 .

(2) الذاريات : 23 .

فمن سره أن يعطيه الله - عز وجل - على يد عبد من عباده فليسأل الله الذي بيده ملكوت السموات والأرض : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] .

وكم تأملت هذا الحديث الشريف الصحيح الذي رواه البخاري وغيره ، كيف كان - ﷺ - يقول ذلك خمس عشرة مرة في اليوم والليلة ، إنه علاج للنفس الراغبة في الاطمئنان على رزقها ، والله - تعالى - يقول : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[2] .

ثم إن هذه الآية خير علاج للذين يزعمون أن هناك أعمالًا ، وسحرًا ، و(عكوسات) في أرزاقهم مالًا ، وزوجًا ، وترقية ، وغير ذلك أقول لهؤلاء : إن الله يقول : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[3] . والتعبير بـ ﴿لا﴾ التي هي عندنا معشر اللغويين نافية للجنس ، يدل على أنه لا ممسك من ملك وجن وإنس وساحر ، وكذلك لا مرسل من ملك وجن وإنس ، إذا فتح الله فلا ممسك وإذا أمسك الله فلا مرسل ، فكيف تسحرون وتزعمون أن بيد أحد من الخلق شيئا من النفع والضر .

يقول الله تعالى فيها : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[4] تؤكد ما قبلها ، فإذا اعتقدنا ذلك فلا غالب لنا من وهم يدحضه الحق .

---

(1) آل عمران : 26 .
(2) هود : 6 .
(3) فاطر : 2 .
(4) فاطر : 3 .

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ .

يقول الله – تعالى – : ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[1] وفي ذلك قصة يونس – عليه السلام – وقول الله – تعالى – : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ .

معنى هذا أن التسبيح رحمة ، وكان سببًا في نجاته ، فهل تغير التسبيح ؟ الجواب : نعم ، صار مجرد كلمات ، وعدد ، ولكن روح التسبيح غابت ، إن نبي الله يونس – عليه السلام – سبح الله كلاما واعتقادًا ، حيث قال كما جاء في سورة الأنبياء : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2] وقد يقول امرؤ منا القول نفسه ، ولكن النتيجة مختلفة والواقع يشهد بذلك ، وما ذلك إلّا أنه قالها بلسانه والقلب غافل ، فما أكثر الذين يقولون : «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» وهم لا يشعرون بما يقولون ، وتلك مأساة .

وقس عليها كل دعاء صحيح ، وكل ما قال فيه السادة العلماء والأولياء «مجرب» فالدعاء لا يجرب ، إنما جربه من كان حاله كحال الأول الذي استجيب له ، كما قيل : «هذه هي الفاتحة فأين عمر ؟» لما قيل : إن عمر – رضي الله عنه – قرأ الفاتحة على رأس مريض فشفاه الله ، وكما جاء في حديث البخاري أن أبا سعيد الخدري قرأ الفاتحة على مريض فشفاه الله ، فكن عمر ، وكن أبا سعيد وعندئذ تنجح التجربة ، فالدعاء والقراءة ليسا من المواد الطبيعية التي تكون على منوال

(1) الصافات : 142 - 144 .

(2) الأنبياء : 87 .

واحد مع أي أحد ، كالمعادلة والنتيجة الكيميائية لا تتغير بتغير مَنْ يجريها ، وإنما سرها في الداعي ، والقارئ ، والله – عز وجل – يقول في سورة المائدة : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1] .

فإذا أردت أن ينجيك الله من الكرب فسبح أي نزه الله – تعالى – واتهم نفسك ، ولا تكن من الذين يقولون سبحان الله وبحمده ، وهم يقولون معها صراحة أو ضمنا : يا رب ماذا فعلت أنا حتى تبلوني بكذا ؟ فهذا ليس تسبيحًا ، ولا ينتظر قائله نجاة من كرب ، قال موسى – عليه السلام – في آية القصص : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ ﴾[2] .

....

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ .

يقول الله – تعالى – : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[3] .

والآية قبلها يقول فيها ربنا – تعالى – : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾[4] .

(1) المائدة : 27 .

(2) القصص : 16 .

(3) غافر : 85 .

(4) غافر : 84 .

وما أود ذكره هنا هو أن هناك وقتًا لا ينفع فيه الإيمان ولا التوبة ، وهو وقت حلول الأجل والقضاء بالعذاب ، نسأل الله العفو والعافية والسلامة قبل الداء ، والعافية قبل الابتلاء والدعاء في عموم الأوقات التي يستجيب الله - عز وجل - فيها ، بل نسأله بما ذكره سيبويه ، عليه رحمة الله «اللهم أشركنا في دعوى المسلمين» .

إن الله - عز وجل - يحدثنا عن عاقبة الذين من قبلنا ، كانوا أكثر منا قوة وآثارًا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون .

ثم قال الله - عز وجل - : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾[1] ما ينفع أن يقول المرء عند رؤية البأس وقيام القيامة : آمنت .

قال فرعون : آمنت أنه لا إله إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين .

فماذا قال الله - تعالى - ؟

قال الله - تعالى - : ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2] .

وكذلك الذي يقول : «تبت إلى الله» عند الموت قال - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[3] .

(1) غافر : 84 .

(2) يونس : 91 .

(3) النساء : 17 ، 18 .

فانظر إلى قوله – تعالى – : ﴿ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ فماذا قبل الآن ؟! وخلاصة القول أن الحياة فرصة للتوبة وعمل الصالحات ، فهنيئًا لمن لم يضيعها حتى إذا حضره الموت ، وغرغرت كما جاءت في الحديث قال : «تبت الآن ، فعندئذ لا تقبل التوبة والعياذ بالله .

....

﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ .

يقول الله – عز وجل – مخاطبا رسوله – ﷺ – : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[1] .

السبب الذي جعلني أذكر هذه الآية الكريمة في هذا العمل أني ما سمعت أحدًا من الوعاظ ولا من كبار العلماء يذكرها في مناسبة دينية أو غيرها . ويقول : إن الله – تعالى – قال لرسوله – ﷺ – : ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ .

وإنما جميع المتحدثين يقولون : دعا نوح على قومه فقال : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا ، وأما سيدنا محمد – ﷺ – فقد نزل ملك الجبال ، وقال له : إن أردت أن أطبق على أهل مكة الأخشبين فعلت فقال : اللهم اهد قومي .

فهلا قال ذلك القائل .. لأن الله – عز وجل – نهاه على أن يستعجل للكافرين العذاب وأمره بالصبر ؟!

(1) الأحقاف : 35 .

فقال : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل ﴾ والنبي - ﷺ - يتبع الوحي الذي ينزل عليه وهذا لا ينقص من قدر رسول الله - ﷺ - ولا من قيمته ، كما لم ينقصه قوله - كما أمره ربه : ﴿ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾[1] .

بل إنه يزيده - ﷺ - تشريفًا لأن الامتنان لأمر الله مناط كل تشريف ، وسبب كل خير ، فالفضل في عدم الاستعجال مرجعه إلى الله - عز وجل - الذي قال لرسوله - ﷺ - ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ .

كما أنّ الفضل لله في لين رسول الله - ﷺ - ألا ترى إلى قوله - تعالى - : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[2] .

وصدق الله العظيم إذْ يقول لنبيه - ﷺ - : ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[3] لذا كان علينا ألا ننسى فضل الله - تعالى - على رسوله ، وألا ننسى فضله - تعالى - علينا .

---

(1) الأنعام : 50 .

(2) آل عمران : 159 .

(3) النساء : 113 .

﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾ .

يقول الله - تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾[1] .

لا شك أننا جميعًا على مستوى الفرد ، وعلى مستوى الأمة في أشد الحاجة إلى تدبر هذه الآية ؛ حيث إنها من قبيل الشرط ، واللغويون يقولون إن جواب الشرط معلق على فعله بمعنى أنه إذا حصل الشرط (فعله) حصل الجواب ، فإن قلت : إن تجتهد تنجح كان النجاح معلقًا على الاجتهاد ، فإن كان منك اجتهاد كان لك نجاح ، وإن لم يكن منك اجتهاد لم يكن لك نجاح ، وكذلك الحال : إن نصرت الله - تعالى - نصرك الله .

فإن قلت : كيف أنصر الله ؛ فالله - عز وجل - ليس في حاجة إلى من ينصره فالجواب : أن الكلام على حذف مضاف ، كما هو الحال في ذكر الله ، وقد سبق بيانه ، وكما هو الحال في قوله - تعالى - : ﴿ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ﴾[2] أي : واسأل أهل القرية ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، والتقدير في آية محمد : إنْ تنصروا دين الله ينصركم الله ويثبت أقدامكم .

وإن قلت : وما معنى نصر دين الله عز وجل ؟ فالجواب : اتباع تعاليمه وتنظيم شعائره .

والعمل على هداه ، وسنة رسوله - ﷺ - والعجيب في تردد المسلمين في ذلك ترددًا يدعو بالضرورة إلى مراجعة حقيقية ، أو بلفظ آخر : إلى توبة نصوح مما نحن

(1) محمد : 7 .

(2) يوسف : 82 .

عليه . ألست ترى أننا نقدم ما عليه الناس على ما عند الله ورسوله ، والله – عز وجل – يقول في صدر سورة الحجرات : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ** ﴾[1] فنحن قول كذا وكذا ، وكيت وكيت ثم نقول حتى إن الله يقول ، فتؤخر كلام الله وما ينبغي لنا أن نؤخره ، وقد قال العلماء : إن البخاري – عليه رحمة الله – لم يضع مقدمة لجامعه الصحيح بسبب ذلك ، أي حتى لا يقدم بين يدي رسول الله – ﷺ – .

ونحن نعين أبناءنا الطلاب على الغش ، قالت لي إحدى المعلمات: كنت أراقب في الامتحانات وأغشش الطلاب ؛ لأنهم كانوا يصعبون عليّ ؛ حيث أراهم يبكون لأنهم عاجزون عن الإجابة ، فهل هذا من نصر الدين الذي ورد فيه حديث البخاري «مَنْ غشنا فليس منا» ؟! وهل من نصر الدين أن نخرج الطلاب ونحن على علم أنهم زيوف ، كالأوراق المالية (المزورة) ، ونحن نجامل الناس على حساب الدين وفي مسامعنا قوله – ﷺ – : «**لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**» .

ثم تبقى كلمة أخرى مهمة في نصر الدين ، وهي الإعداد ، وأعني به كل إعداد من شأنه أن يرفع راية الدين ، وشوكة المسلمين ، قال الله – عز وجل – : ﴿ **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ** ﴾[2] .

---

(1) الحجرات : 1 .
(2) الأنفال : 60 .

وليس من نصر الدين أن نَتَزِيَ بِزِيِّهِ ونهمل معناه فإن الله – تعالى – يقول : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾[1] .

وإقامة الدين معناها إعلاء كلمته ، والنسج على منواله ، وعدم تفريغه من محتواه بأن نصلي غير منتهين من الفحشاء والمنكر ، وأن نصوم غير مخلين بآداب الصيام ، وأن نحج رافثين وفاسقين ومجادلين ، وأن نتصدق مؤذين ومانين ، وأن يرانا الناس بزيه لا بسنته ، فإن عاملونا وجدونا أبعد ما نكون عنه .

....

﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ .

يقول الله – تعالى – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[2] .

وقفنا طويلًا ، وليس علينا من بأس في ذلك – عند جزء من هذه الآية وهو قول ربنا – تعالى – : ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ ويا ليتنا عرفنا التقوى حقيقة لا ادعاء وعملًا لا قولًا ، لكنا لم نقف عند قوله – سبحانه – : ﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ أي لتتعارفوا ، ويحسن بنا أن نقف عنده طويلًا ، حيث صارت سبل التعارف بين الناس ميسرة ، حيث الاتصالات السريعة والإنترنت ، وغيرها وصرت تسمع

---

(1) الشورى : 13 .

(2) الحجرات : 13 .

أخبار الدنيا في طرفة عين ، بل تشاهدها أيضًا ، ما عاد يعز عليك أن ترى ما يحدث للأطفال في غزة من قبل الصهاينة ، ولا ما يحدث في العراق ، فماذا فعلنا إذْ عرفنا ؟ وما عاد يعز عليك أن تعرف أخبار البائسين وسكان المقابر ، فماذا فعلت من أجلهم ؟ وقد سمعت ترجمة لرئيس وزراء بريطانيا (توني بلير) حيث قال : إن بعض رؤساء العرب يأتي إلينا ليلتقط معنا صورًا ، ويثبت لشعبه أنه يعرفنا . كلمة قاسية ، لكنها تعبر عن تعارف قاصر ، وعن فشل يجب أن نعترف به في التعارف والتعرف على الناس ، من قديم كان الناس يتعارفون ، فإذا بهم يتبادلون المنافع ، ويحرص كل منهم على معارفه يصون تجارته إن مرت ببلده ، والآخر يفعل ذلك . ولا شك أن القرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم ومن الأقوم الذي يهدي إليه الكتاب العزيز أن يؤدي التعارف رسالته ، وأن يسفر عن فائدة متبادلة بين المتعارفين ، وألا يكون تعارفًا عن طريق الشات وغزل البنات ، وإنما يكون لتبادل الخبرات وقد رأى سيدنا رسول الله - ﷺ - أن إرضاع الحامل مولودها لا يضر بالجنين في أمة بعيدة ، فأرشد إليه المسلمين ، ولم يقل إنه وحي من الله ، وإنما قال : وجدته عندهم لا يضر ، فمازلنا في حاجة إلى ثمرات التعارف برغم الاختلاف .. وفرق كبير بين أن تقول لأخيك في الإنسانية جئت أتعرف عليك . وأهديك ، وأفيد منك وتفيد مني ، وبين أن تقول له : جئت لأقتلك ؛ فهذا الدين دعوة إلى الحياة ، لا إلى التقاتل .

﴿ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ ﴾ .

يقول الله – تعالى – : ﴿ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾(1) .

الشاهد في الآية والذي يجب أن يكون نصب أعيننا قوله – تعالى – في خُلُقِ رسوله – ﷺ – في العتاب «عرّف بعضه وأعرض عن بعض» ولله در الزمخشري وغيره من السادة العلماء حيث قالوا إن الاستقصاء في العتاب ليس من المروءة ، والمروءة بلا شك في رسول الله – ﷺ – آية تمام ؛ لذا قال الله فيه ﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾ .

فمن فينا معشر المسلمين اليوم ، الذي إذا عابت زوجه أو ولده أو صاحبه لم يستقص وإنما تأسى بالأسوة الحسنة ، والخلق العظيم في سيد ولد آدم ، سيدنا رسول الله – ﷺ – فذكرًا شيئًا ، وأعرض عن أشياء . إن كثيرًا من الناس إذا عاتبوا لم يذكروا فقط كل شيء ، وإنما يضيفون أشياء مختلفة من عند أنفسهم ، بناء على نظرة كانت ممن يعاتبونه ترجموها إلى سخرية واستهزاء ، فإن انتفض أمامهم وقال : والله لم أسخر ، ولم أستهزئ قال له : كذاب ، والله لقد سخرت واستهزأت بي ، فقد نظرت إليّ نظرة تقول ذلك ، يا رجل ، عيب عليك وفي أغلب الأحوال يستحيل العتاب عراكا ، فإذا الهدف الذي شرع من أجله قد ضاع ، مثلما ضاعت أهداف كثيرة بسبب سوء سلوكنا في السبيل إليها ، تمامًا كما يقال : «جاء ليكحلها فأعماها» .

(1) التحريم : 3 .

فالعتاب شروع بين الناس من أجل أن يعودوا سيرتهم الأولى قبل حدوث ذلك الشيء الذي يتعاتبون من أجله ، ومن ثم كان على مَنْ يعاتب أن يكون رقيقًا في عتابه رحيمًا بمن يعاتبه حتى يعود الصفاء بينهما كما كان ، ويعينه على الرفق والرحمة بمن يعاتبه ألا يستقصي ، أي يذكر شيئًا ويعرض عن أشياء كما كان سيدنا خاتم الأنبياء محمد - ﷺ - .

....

﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾ .

يقول - عز وجل - : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾[1] .

أذكر في سياق هذه الآية المباركة أن كفار مكة آذوا رسول الله - ﷺ - إيذاء بالغًا ، بلغ مبلغه إذْ أخرجوه منها ، وهي مولده ، ومربع صباه ، ونشأته ومبعثه المبارك ، وما ذكر شيئًا مما أسمعه إياه ورقة بين نوفل إلّا «أو مخرجيّ هم ؟!» كأن صبره على الأذى متوقع ، وعلى التكذيب متصور ، أما إخراجه من مكة أحب بلاد الله إلى الله ، وأحب بلاد الله إلى نفسه - ﷺ - فذلك أمر صعب عليه ، وجاءتهم نائبة ذكرها القرآن الكريم في سورة الدخان فسألوه أن يدعو لهم الله فدعا ، وقال الله : ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾[2] .

ويوم أسلم ثمامة بن أثال ، ومنع عنهم الميرة أرسلوا إليه - ﷺ - يسألونه بالله والرحم أن يكتب إليه ليعطيهم ، فكتب إليه - ﷺ - وقال : «خَلِّ بين قومي وبين ميرتهم» .

(1) المزمل : 10 .

(2) الدخان : 15 .

انظر كيف كان - ﷺ - خلقه القرآن ، والقرآن يقول : ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ .

هذا هو الهجر الجميل إن احتاج من هجرته أعطيته ، وإن استجار بك أجرته ، قال الله - تعالى - : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

فما للناس صار هجرهم عداء ، وفحشًا ، وسوادًا وبغضًا .

وانظر إلى الطلاق ، ماذا قال الله فيه : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾[2] .

أي سراحًا جميلًا بلا ظلم ، ولا نقص حق ، فكيف صار الطلاق مأساة في حياة المسلمين ، وظلمًا ، وسوادًا كذلك .

وانظر ماذا قال الله في الصبر قال - تعالى - : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾[3] .

ولن يكون الصبر جميلًا إلّا إذا حبس المرء نفسه عن الشكوى لغير الله .

كل شيء في الإسلام جميل ، وعلينا أن نراه جميلًا بأن نعمل بمقتضاه .

(1) التوبة : 6 .

(2) الأحزاب : 28 .

(3) يوسف : 18 .

﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ ﴾ .

والأخيرة يقول الله – تعالى – : ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ ﴾[1] .

قلت ذات يوم في محاضرة عامة عبارة عن سؤال وأجبت عنه ، فقلت : هل من الإسلام أن تعتكف على المصحف وليس في جيبك شيء ، أم من الإسلام أن تقرأ ما تيسر منه وتسعى لكي يكون في جيبك شيء ؟! وأجبت بأنه الثاني ، لا الأول ، وكانت هذه الآية دليلي على ما قلت ، لا رهبانية في الإسلام ولا كهنوت فيه ، ولا مبالغة في أمر من الأمور حتى في الحب والبغض ، وليس معنى هذا أن يهجر القرآن بالكلية ، إنما معناه أن الله لطيف بعباده والمداومة على القرآن مطلوبة لتفلته كما جاء في الحديث . والعمل بما فيه واجب على كل مسلم ، وليس حفظه بواجب على كل مسلم .

رحم الله المريض فأمره بأن يقرأ ما تيسر من القرآن لأنه لا يطيق .

ورحم الله الذي يضرب في الأرض عاملًا وتاجرًا وصانعًا فأمره أن يقرأ ما تيسر من القرآن .

(1) المزمل : 20 .

السعة والضيق والابتلاء

﴿ كَلَّا ﴾ .

يقول الله – تعالى – : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ۞ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾[1] .

كثير من الناس يظن أن الله أكرمه إذا توفر ماله وحسن حاله ، وكثير من الناس من يظن أن الله أهانه أو ينتقم منه ، إذا كان قليل المال ، أو سيئ الظروف وقد تبين من خلال هذه الآيات أن النعمة ليست دليل إكرام من الله ، وأن الابتلاء ليس دليل غضب أو إهانة ، أو انتقام ، وإنما الأمران ابتلاء ، ويكون الإكرام أو الإهانة بعد النجاح في هذا الابتلاء ، فإن شكر المنعم عليه فقد نجح في ابتلائه ، وإن صبر المبتلى بشيء ، فقد نجح في ابتلائه كذلك ، ومن نجح فقد أكرمه الله – عز وجل – ومن أخفق فقد أهان نفسه ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[2] .

(1) الفجر : 15 - 17 .

(2) آل عمران : 185 .

المحتـــويات